ليلى العثمان

نسخة منسقة
مجلة الابتسامة
www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

خُذْهَا

www.ibtesama.com

لا أُرِيدُهَا

رواية

مجلة الابتسامة

دار الآداب

فريق العمل بقسم تحميل كتب مجانية

شكرا لمن قام بسحب الكتاب
و جزاه الله خيرا

رياحين

^ RAYAHEEN ^

خلها لا أريدها
ليلى العثمان/ روائيّة كويتيّة
الطبعة الأولى عام 2009
ISBN 978-9953-89-092-0
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
Website: www.adabmag.com

ليلى العثمان

خذها لا أريدها

رواية

دار الآداب

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

الغسول

وصلتُ متأخرة. أمّي الجميلة مسجّاة أمامي على اللّوح الخشبيّ بعد أن ثابت روحها إلى السكينة. عارية إلاّ من تواريخ حياتها المغموسة بعصائر الحزن ونتفٍ من الفرح.

أتأمّل سكونها.. خيوط النور تتلألأ على وجهها الذي لم تدبّ إليه صفرة الموت بعد. عيناها مسبلتان كأنّهما تغطّان في نوم موقّت. جسدها المستور بالغطاء الأبيض لا ترفُّ به شعرة. بجانب اللّوح الخشبي عدّة الغسول: (طاسة السّدر)، (صابونة الرّقي)، ليفة، مشط خشبي، خرطوم الماء موصول بثغر الحنفيّة بانتظار أن يبدأ دفقه.

سِرْبُ الكلمات الناعية يدلف إلى سمعي مخلوطًا بالآنات، وبالدعاء وتعداد مآثرها من جارات عرفْنَها أكثر منّي، تواصلن معها، أحببْنَها الحبّ الذي عاش حتى إغفاءتها الأخيرة. حزنهنّ عليها واضح وصادق. وأنا... من يصدّق حزني؟

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أمام المشهد المهيب تسمّرتُ.. متلبّكة مشاعري بين حبٍّ تصوّرته انطفأ، وندم يفضح عقوقي الذي دفعني إليه عناد أجوف. أودّ لو أصرخ. لعلّ عاصفة صراخي تفزع الموت فيهرب لتعود أمّي ولو دقائق إلى الحياة، تغمرني بحنانها الشهيّ، تشحن حليمات لسانها الرقيق فينطق بشهادة غفرانها، تمنحني راحة ضنَنْتُ بها عليها، تهديني سلامًا يُضيئني فأواصل الحياة مرتاحة الضمير، ترضعني أملاً يُزيح وساوس أخشى أن تهاجمني في سنواتي القادمة. لكنّها في رقدتها الأخيرة لا تملك أن تهبني شيئًا.

واصلتُ نحيبي. وحدي أسمع ضجيج ندمي، أسقط في هوّة التصوّر العجيب (ماذا لو كنت أنا الميتة وأمّي ترفل بثوب العافية؟ هل ستبصق على وجهي وتهيل عليَّ تراب لومها لتزجّني دعواتُها الغاضبة إلى جهنّم وبئس المصيرا؟ أم تراه قلب الأمّ الرحوم يحنو ويزفّني بآيات الرضى إلى الديّان ليتكفّلني بما أستحقّ؟!).

هو ذا الموت تجلس في حضنه هادئة وآمنة. يحنُّ عليها، يدلّلها، يهديها الذي ما استطعت أن أهديه ويبشّرها بجنّة عرضها السموات والأرض.

اسْتغْورتُ في التوَهان وصحوت منه حين دبّت الحركة بدخول المرأة المُناطة بها مهمّة غسل أمّي وتكفينها. دخلتْ تسبقها رغرغة صوتها، تُحوقل وتُبسمل وتردّد الشهادتين.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

التقطتْ عيناي الدامعتان صورتها: قصيرة، سمينة، تقاطيع وجهها غليظة غير مريحة، لونها مائل لسمرة زرقاء. شعرها الأجعد بفرقه العريض يبرز خيوط الشيب ويضاعف عرض الوجه.

شقّت طريقها بين النائحات، الوجوه صفراء باهتة، وروائح ليل بائت ومطابخ تفوح من ثيابهنّ. اتّجهت المرأة صوب أمّي، أمرتْ بصوتٍ لا يخلو من حدّة:

ـ صلّوا على النبي.. لا تعذّبوا الروح بالعويل.

نزعتْ عباءتها، كوّرتها، قذفت بها فاصطادتها إحدى النساء قبل سقوطها ووضعتها فوق صندوق أمّي الخشبيّ القديم.

مسحت المرأة وجهها، وبإصبعين ثخينين جلتْ زبَدًا ربض عند زاويتيْ شفتيْها. سحبت التختة الخشبيّة المجهّزة لجلوسها، أسقطتْ جسدها الثخين عليها فتدلّى من الطرفين شحم وركَيْها الرّخوين. طوت كُمَّيْها حتى الكوعين، نشقت مرّتين، مسحت أنفها المُكوّر مثل تمرة ناشفة، تفقّدت الأغراض المُجهّزة، هزّت رأسها علامة الرضى، سمّتْ بالرحمٰن، تشهّدتْ قبل مباشرة عملها.

* * *

راقبت عيناي وجهها الخالي من تعابير الخوف. فالموت ليس حدثًا غريبًا تخشاه أو تنفر منه. وما أجساد النساء الميّتات

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أمامها سوى تماثيل نامت عليها الأتربة ومهمّتها تنحصر بإزاحتها. بدأتْ بفكّ ضفائر أمّي، تناثر الشعر الطويل ناعمًا متموّجًا بشيباتٍ قليلاتٍ تلتمع كخيوط الفضّة. أمسكتْ بخرطوم الماء إمساكَ مزارع بارع، وباشرت ترشّ الجسد كمن ترشّ أرضًا سُمّدتْ ويُنِرتْ فيها الحبوب للنموّ. طشار الماء مسَّ أطراف قدميّ، أرجفني، همستُ بصوتي الباكي:

ـ (الماي بارد).

خرج صوت المرأة بلا عطف:

ـ (الميّت ما يحسّ).

ابتلعتُ وجعي وقد فاجأتْ جسدي ارتعاشات تصوّرتها شهقات ريح تغادر أمّي وتسكنني. ما أدراها أنّ الميّت لا يحسّ؟ كرّرتُ همستي، لكنّها لم تأبه وواصلتْ ريَّ الجسد المستسلم الملتمع بياضه كما (الجُمّار)[1]. سكبتْ قليلاً من الماء فوق مسحوق السدر، مزجته وصبّته فوق شعر أمّي، دعكتْه برغوته ثم شطفته بالماء، مشّطته، ضفّرته ثلاث ضفائر وألقت بها خلف الرأس. بلّلتْ اللّيفة بالماء، حكّتْ عليها بالصابونة بعنف فشعرت باللّيفة تستنجد الرأفة، لكنّها وبذات العنف أخذت تفرك أمّي بادئة من الوجه منحدرة إلى العنق، فالصدر، وحين وصلت إلى البطن فرشت كفّها عليه وأخذت

---

(١) الجمّار: طلع النخل.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

تضغط ضغطات متتالية وتعصر عصرًا خفيفًا. وتوقّعًا منها أن يعترض أحد شرحت وهي تواصل:

ـ (لازم يطلع وسخ البطن كلّه).

اندسّت يدها تحت الشرشف الأبيض الذي يغطّي عورة أمّي وبدأت تفرك الفخذين، صَدَرَ صوتُ أصابعها يخترق مُستقيم أمّي ومهبلها وهي تسحب ما تخثّر بداخلهما من سوائل، ولسانها: (أعوذ بالله من الخبَثِ والخبائث). أشفقتُ على أمّي، تمنّيتُ لو كنت أنا التي تحنو على جسدها وتطليه بالقبلات، لكنّني جامدة مذهولة، تنساب دموعي كما الماء الذي ينساب على جسدها. جسدٌ بضٌّ، متماسك، لا يبدو أنّه تجاوز الستّين. لم تكتم الغاسلة إعجابها به:

ـ (ما شاء الله، جسم مثل المرمر، رحمة الله عليها).

عادت ترشّ الماء وتتلفّظ بالدعاء: (اللّهم اغفر لها وارحمها واعفُ عنها وأكرم نزلها ووسّع مدخله واغسلها بالماء والثلج والبرد ونقّها من الخطايا كما يُنقّى الثوب الأبيض من الدنس). قبل أن تُتمّ الشطف التفتَتْ إليّ دون كل الواقفات وبغلاظة أمرتني:

ـ (تعالي.. شاركي في غسلها ينوبك الثواب).

* * *

جفلتُ...! تأمّلتُ الماء المنساب أمامي. هو روح أمّي، دم أمّي، أشمّ فيه رائحتها، رائحة وجعها ودموعها، كيف

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أدوس ماءها وفيه عصاراتٌ من كبدها وعروق قلبها؟ كيف ألامس لؤلؤ جسدها المنثور أمامي؟ هل أستحقّ شرف غسلها؟ خطوتي ملجومة رغم العاصفة الهوجاء بداخلي وصوت المرأة يهزّني:

ـ (خايفة؟ تعالي. الموت رحمة).

صوتها كمقبض النار ينقذف إلى عمقي، يشقّني، فتشقّ صرختي عباب المكان:

ـ يأخذ أمّي وتقولين إنّه رحمة؟

صفّقتْ بكفّيها والماء يتطاشر، هزّتهما مُولْولة:

ـ (أستغفر الله العليّ العظيم.. تخبّلت المرأة.. خذوها من وجهي).

شدّتني الأيدي، بعضها رحيم يقدّر فجيعتي، وبعضها تغوص أظافره بلحم زندي كما الخناجر في لحم كافر. رُكِنْتُ في الزاوية. تتلاطم بداخلي أمواج الرّعب والرّهبة، ويَجنّ السؤال:

كيف يكون الموت رحمة وهو بيت الفاجعة والظلام؟ كيف و.. (هو البيت الذي لا عودة منه إلى حيث الداخلون يُحرمون النور حيث التراب قسمتهم والطين طعامهم. حيث لا يرون النور بل يسكنون الظلمة)[1]؟ كيف يكون رحمة وهو لم يتردّد

---

(١) من ملحمة الخلق ـ أنوما أبليش ـ قول عشتروت.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أمام هذا الجمال؟ لماذا انتهك عمر أمّي؟ لو كان رحمة لرحم قلبها الذي تشهّى أن يراني ويفرح، لو كانت له يدان رَحومتان لما قطع حبل الوصل بيننا، لماذا لم يُعْطِ الإشارة بقدومه؟

كان حقدي على الموت يُؤجّج الأسئلة الغاضبة غير المتوازنة. قهري ينزعني من عقلي، يُفجّر كراهيّتي لهذا المارد الذي سيغيّبها في الزمن المحنّط فلا أعلم إن كان سيفردُ لهذه النجمة سريرًا في قلب الجنّة، أو ينساها في اللحظة التي يلتحفها التراب وتتوه في العتمة.

تَوّهتْني أفكارٌ شيطانيّة لم أستفق منها إلاّ في اللحظة التي عجَّ فيها صوت المرأة الغاسلة:

ـ (هاتوا الفوطة).

حسبتُ أنّ خلاص أمّي من يدها قد حان، طيّرني اطمئناني، شددتُ فوطَتَيْن، قدّمتهما لها، فرشقتني وهي تشدّهما بنظرات لائمة غير قاسية وقالت:

ـ (استغفري ربّك يا بنتي. وادعي لها بالرحمة).

مسّني خوف. هدلتُ في داخلي: (أعوذ بالله من الشيطان الرّجيم، هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم).

بدت يدا المرأة أرقّ وهما تجفّفان جسد أمّي الذي التمع أمامي نديًّا، ساحرًا بطهارته، بدا كجسد طفلة مغسولة فور خروجها من الرحم. وارتفع صوت المرأة مناديًا:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ (تعالوا شيلوها ينوبكنّ ثواب).

تسارعتْ النسوة الطامعات بالثواب، ارتفع الجسد، بدا حمله خفيفًا فغمرني إحساس بأنّ الملائكة تزفّه بسلام. سبقتُ المحمل إلى الغرفة التي جُهّزتْ بلوازم التكفين. وُضِعَ جسدُ أمّي على الأرض فوق الملاءة المفروشة، لسان المرأة يتلو آياتٍ من سورة (تبارك) ويكرّر الشهادتين وهي تزيح إحدى الفوطَتَيْن وتترك الأخرى التي تستر العَوْرة.

صَدْر أمّي مكشوف أمامي: ها هما الثديان متماسكان كتفّاحتين لم يصبهما عطبُ السنوات ولا دعابات الزواج، كأنهما لم يُرضعاني، وحليبهما الشهديّ لم ينزف بعد. فاجأتني الرغبة في أن أرتمي على الصدر، أتمرّغ عليه، أحضن الثديين بكفّي، ألتقط الحلمتين الناهضتين أعبُّ حليبهما المخزون، أتغرغر بحنان حُرمَتْ منه شراييني وروحي، أرتوي رواءً يمنحني عافية لأواصل مشقّات الحياة، أو يرحمني ويحقّق التئام موتي بموتها. سِرْتُ بنظرتي إلى البطن: هنا تخلّقتُ، سبحتُ، تشكّلتْ ملامحي ولوني، كنت أكبُر بفضل حبلها السُّريّ الذي يغذّيني ولم يبخل عليّ. هو البطن الذي بصبر وتعبٍ آواني وكان ساحتي ومهدي وملعبي، كم شقيتْ أمّي وسهرتْ وأنا ألبط بداخله وقلبها لا يتذمّر بل يفرح بحركتي وشقاوتي، ويتمنّى أن أخرج إلى النور مكتملة الأطراف سليمة البصر والسمع. كان هذا شعوري يوم كانت عفاف في رحمي، فلماذا جحدتُ هذا لأمّي وقسوتُ عليها؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

نظرتُ إلى فخذَيها المُمدّتين أمامي: بيضاوين مشدودتين كأنّهما صُنعتا من رخام وحليب. جمالٌ احتفظتْ به أمّي حتى ساعتها الأخيرة. جسدٌ باهرٌ قاوم زحف السّنوات وضروبها.

ارتفعتُ بنظرتي إلى الوجه المُتألّق المُستسلم للسّكينة: عيناها اللوزيّتان، ثغرها ذو الشفتين الرفيعتين لا يزال ورديًّا صامتًا لا يشكو، لا يطلب قطرة ماء أو قبلة وداع أخيرة. كان ألَقها الجميل ينفرد في الغرفة مثل الشعاع، وكانت زاهية في موتها كما لو أنّها بعد حيّة تسرق لنفسها لحظة استرخاء لذيذ لتحلم أو تفكّر.

صوت المرأة يطلب الأشياء: خيط. الأصوات تتقاطر إليها: موجود. كافور، قطن، دهن العود. موجود.. كل شيء موجود. هزّت رأسها واستعدّت للجولة الثانية. قرأتْ: ﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا بالنفس اللوّامة...﴾.

* * *

قلبي يرفُّ كزهرة موشكة أن تفقد ورقتها الأخيرة، ورائحة الكافور تفوح حارقة قويّة، أخذتِ المرأة ترشّه على كُتل القطن، تكوّرها وتدسّها في مغابن الجسد. تحت الإبطين، بين السّاقين، داخل المخارج، بين أصابع القدمين، حفرة السرّة، تحت الذقن، خلف الأذنين وداخلهما، فوق العينين، وفي فتحتَيْ الأنف. كانت دبابيس حارقة تندسّ في أمكنتي كلّما دُسّ القطن في مكان. شعرت بعتمة حين أُغلِقتْ عينا أمّي،

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وباختناق عند إغلاق الأنف، احتملتُ كل هذا وتصبّرتُ، لكنّ صبري تهاوى حين ضغطت المرأة صدغيْ أمّي فاصلة الفكّ الأعلى عن الأسفل. فانفرج الثغر الجميل أمامي، خُيِّلَ إليّ أنّها صرختْ، استغاثتْ، توسّلتْ أن تبوح بوصيّتها أو كلمتها الأخيرة. تلك الصرخة الموهومة رجّتني، طيّرتني، فاندفعتُ مثل ريح نحو المرأة، أزحتُ كفّها الثقيلة قبل أن تدسّ كتلة القطن، حميتُ الثغر، صرخت:

ـ يكفي... اتركيها يا ظالمة.

قاومتني المرأة التي كدت بثورتي أن أنزع لحمة من زندها المترهّل. قذفتْ بيدي بعيدًا وصوتها الغاضب كالنار يذكّرني:

ـ (هذي سُنّة الله ورسوله).

ثائرة زعقتُ في وجهها:

ـ (سُنّة الله أن تعذّبي أمّي؟).

احتضنتني إحدى النسوة لتحميني من لوثة لحظتي المجنونة وصوتها الحنون يتوسّلني:

ـ (يا بنتي لا تكفرين.. تعوّذي من الشيطان).

هل كفرتُ حقًّا؟ أم فقدتُ اتّزاني للدّرجة التي تخيّلوني قد كفرت؟ لماذا لا يقدّرون فجيعتي وفُجاءتي بهذه الطقوس التي لم أشهدها من قبل وأحسّها تزلزلني؟ لماذا يُحْكَمُ على ثغر أمّي الجميل أن يُغلق بهذه الطريقة؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

احتملتُ ارتجافي، تعوّذتُ من الشيطان، استغفرتُ، سرى في روحي أمانٌ لكنّه لم يمتدَّ ليشمل عينيّ، فقد ظلّتا تنوحان وتغمران أمّي التي فاجأتْها موجة الموت قبل أن أتذوّق عسل قبلاتها، وأسمع آيات رضاها، هو ثغرها الآن مُعْتمٌ بقطنه وكافوره وجسدها كالنور ينطفئ بانتظار احتجابه الأخير.

أمّي مثل طفلة خارجة من الرحم. الكفن مهادها الأبيض. بدا المرأة تبدآن بالتكفين. لم أطق المشهد. ركضتُ قبل أن يعترضني أحد، وبملئي نثرتُ نفسي على الجسد أفكّ أسره، أُهطل عليه مطر عينَيّ وغيمات روحي، أصرخ (أمّي. حبيبتي. قومي ولو لدقيقة. أمّي.. أمـ..).

أمسكتُ بذراعها، قبضتُ على كفّها الباردة، بلّلتها بدموعي، أدفأتُها بقبلاتي وأنا أرجوها ألاّ تفارقني حيث انتهاؤها وانطفاؤها بالظلمة الأبديّة. حاولتِ المرأة سلخي عن أمّي وصوتها يهدر بغضب:

ـ (ابتعدي عنها.. حرام عليك، لقد أزعجتِ ملائكتها).

أبتعد...؟ كيف وقد ابتعدتُ بما فيه الكفاية، عذّبتها بهجري، أنا التي خرجتُ من بطنها، من السّبيل العسر الذي يسّره الله فأخرجني إلى النور، أنا التي امتصصْتُ من حشاشة جوفها دمي، مائي، وحليبي!. (أمّي... آه يا حبيبتي سامحيني.. أمـ ... أمـ ...).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

تناشجتْ دموعي بالكلمات، انطلق صوت المرأة قاسيًا وشامتًا:

ـ (ما تعرفون قدر الوالدين إلاّ إذا ماتوا).

ثم استجارت بالنسوة:

ـ (أبعدوها حتى أكمّل شغلي).

فصلتني الأيدي عن الجسد الحبيب المبلّل بملحي، بندمي وهتافات روحي، تركته ليد المرأة تمهّده وتواريه مهدّدة بصوتها:

ـ (إذا دنتْ منّي أخلّي الميّتة وأمشي).

لكنّها لم تترك أمّي.. واصلت عملها وعبوس وجهها يصبُّ نحوي ويفزعني، وصوتها:

ـ (إنا لله وإنا إليه لراجعون).

انتهتْ من تكفين الجسد، ظلَّ الرأس مُحرّرًا، تصوّرته سيبقى حرًّا لولا أنّها أمسكت بأطراف الكفن تجمعها ولسانها يُتمتم: (اللهمّ اغفر لها وارفع درجتها في المهديّين).

بسرعة فائقة زمّت أطراف الكفن وعقدتها. شرايين قلبي تزمزمتْ وانعقدت. وحين غاب وجه أمّي داخل القماش الأبيض أدركتُ بأنّني لن أراه إلى الأبد.

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

دخل الرجال بملابسهم البيضاء ليأخذوا الجثمان، رفعوه، شعرتُ لحظتها أنّه يلحق بالرّوح إلى السماء طريًا خفيفًا، طاهرًا، مُتخلّصًا من هموم الحياة وزخرفها. عصفُ قلبي لا يتوقّف، أصوات المعزّيات المُبقّشات بالسواد تكرّر التعازي، تلك بحنان، أخرى باللوم، وثالثة تتأسّف: (ماتت بالحسرة) وكأنّ أصابع اتّهامها تقصدني ـ بل هي تقصدني ـ حاولتُ أن أردّ لكنّ الكلمات تلعثمتْ، فقد كان عقلي سارحًا بجسد أمّي المحمول على النقّالة الخشبيّة.

حين ساروا بالنعش شعرتُ بكلّ جذوري تقلع نفسها من الأرض وشجرة عمري تتكسّر، صرت مثل كبش صغير مربوطٌ حبله بقلب أمّي، كلّما ابتعدوا خطوة شدّني إليها جارفًا وحانيًا. أصرخ وأبكي بكاءً مفرطًا رغم يقيني أنّ أذنَيْها المحشوّتين بالقطن لن تسمعاني، وروحها المفارقة لن تعود لتهدّئ روعي.

قبل أن يزجّوا بجثمانها إلى عمق السيّارة، ركضتُ، تمسّكت بقدميْ أمّي، شددْتهما إلى صدري ووجهي، بلّلتهما بالدمع ورائحة الكافور تخنقني، تطايرتْ كلماتي ضارعة: (أمّي.. أرجوك سامحيني.. اغفري ذنبي.. أمـ.. أمّيـ..).

زعق بوق السيّارة، أبعدوني وغاب الجسد الحبيب، انتثر ضباب أسودَ من حولي، كأنّه ضباب روحي. السيّارة تبتعد.. تبتعد. آه.. كم ستبتعد مسافات الغياب! لن أستطيع التقاط روائحها ولا اختراق أرضها.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أخذوها إلى المقبرة. غير مسموح لي أن أرافقها. حتى في رقدتها الأخيرة يستكثرون عليّ أن أقف على قبرها أذرّ عليها التراب المجبول بدموعي ليرطّب مثواها، أقرأ الفاتحة والدعاء: (اللهمّ أفسح لها في قبرها ضيق المضاجع والضرائح. اللهمّ كن لها بعد الأحبّة حبيبًا).

سيحضن الظلام أمّي حيث الفراغ. الضّيق. والوحدة، فراشها التراب، وسائدها دفاتر أحزانها الماضيات، سيصير جسدها ترابًا، لن يبقى منها إلاّ شاهدٌ يحمل اسمها عاريًا مكشوفًا للأنواء، ولن تقدر قبضة شمس أن تتسلّل إلى عتمتها لتُذيب الدّود الشّرِه قبل أن يسري ويقتات من لحم جسدها الناعم.

من أين يأتي الدّود؟ يقولون: (يطلع من بطنك دود يأكلك) وما هو سوى دودنا الذي نغذّيه في بطوننا فلا يردّ لنا الجميل، تصير جثثنا قوته الشهيّ. (آه يا أمّي.. ما الذي ينتظرك؟ هل ملائكة رحومة تحنو عليك أم أسئلة ـ ناكر ونكير ـ تقضّ هدأتك؟).

في داخلي كان الصراخ أزيزًا وصليلاً. كان الشعور باليُتم هو الذي يصرخ ويستغيث. ندَمي مثل جرح طازج مضرّج بالحريق الذي ستظلّ دائرته تتّسع لتحاصرني بوجه أمّي كلّما احتضنتُ وجه ابنتي عفاف. سيتحوّل الندم قلقًا وخوفًا من أن تهجرني يومًا لتثأر لأمّي المسكينة ولوجعها الذي ذاقت حسرته حتى غاب وجهها قبل أن أعلن الحبّ له.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لم تسمع أمّي كلمة حبّ منّي. كنت دائمًا أحسّها شخصًا عاديًّا تربطني بها علاقة خالية من روائح الأمومة، كانت شيئًا من الاعتياد العائم بين الودّ والحذر، بين القبول والرّفض، وكنت أشعر أنّها تفهم تلك العلاقة غير المُقنّنة وترضى بها. لا أذكر أنّها اعترضت أو عاتبتني واستدرّتني نظراتها لأمنحها حبًّا ورأفة. هل كان كبرياء الأمّ أم تراه شعورها في قرارة نفسها أنّها المسؤولة التي حدّدتْ شكل العلاقة منذ ذلك اليوم البعيد، وأبي يهدّدها أن يأخذني منها. صوتها الجافّ من أمومته وصرختها المُجلجلة في وجه أبي تطاردني (خذها... لا أريدها).

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

فراق دون وداع

غادرتُ بيت أمّي بعد أن حملوا نعشها وأنا مضرّجة بدمعي وحريقي. سارحة متشرّبة بحزني، مُساقة لأفكار وأسئلة. لماذا تموت الأمّهات؟ الأمّ حاضنة الرّوح، ساقيتها الدائمة، حارستها في الجسد، مانحتها الماء والغذاء حتى تخرج من ظلمة الرّحم إلى شدق الحياة المنير. لماذا ماتت أمّي فجأة ولم تودّع الحياة متمهّلة؟ هل كان الموت سهمًا تائهًا ضلَّ طريقه ليُصيبها ويخطفها كما خطف أبي؟ لماذا حين شدَّ حبالها قفزت إليه بكلّ فروعها وجذورها؟ هل تمنّتْ أن تموت هكذا أم أنّها لو خُيِّرتْ كانت ستطلب موتًا بطيئًا يمنحها الفرصة لتراني وتغفر لي لأنّها الأمّ، المصنوع قلبها من طين الحبّ وغدير الرحمة.

لا أحد يختار موته. ﴿كلُّ نفس ذائقة الموت﴾ لن يفلح أحد بحياة دائمة، البعض يُقتلعُ بلا إنذار، البعض يُعطى زمن احتضار طويل، والبعض يتّخذ قراره بالموت فينتحر ضعفًا أو شجاعة. كلّه موتٌ وسيطاً مكامننا ولو كنّا في بروج مشيّدة. كم أكرهك أيّها الموت. إلى أين تحملنا ويكون المستقرّ؟ هل

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

التراب بيتنا الأبدي أم ثمّة حياة أخرى مجهولة؟ هل سنعود بعد الموت؟ أم أنّه الخلود (في جنّة عرضها السموات والأرض خالدين فيها أبدًا). هل ستكون الجنّة تحت أقدام أمّي كما وعد الله؟ هل تستريح أخيرًا من الغصّات بعد أن تركت لي غصّة لن تفارقني، وندمًا سيظلّ ينشبُ أظفاره في لحم حياتي.

* * *

حملتُ جراحي والذكريات الماكثة في أعماقي. تركت بيتها وأشياءها التي ما عرفتها، ولا تلمّستها أو ذرَرْتُ حفنة من عطري عليها. لم آخذ سوى دبّوس شعرها الذهبيّ الذي نزعته الغاسلة وألقته على الأرض فظلّ يبرق في الماء، يستحثّني أن آخذه ليبقى ذكرى للتي حفظته حتى لحظة موتها. كان الشيء العزيز عليها الذي لم تُفرّط به أبدًا حتى لي أنا التي تتمنّى لو أطلب روحها لتهديها. كنتُ دائمًا أبدي إعجابي به وأشتهي ولو لمرّة أن أزيّن به شعري، لكنّها ترفض أن يغادر مكانه ويضيع. تقول باعتزاز:

ـ هذا هديّة أبيك ولا أفرّط به.

سألتها بمكر لاهف:

ـ هل تحبّين أبي لهذه الدرجة؟

تورّد وجهها، تلعثمتْ عيناها ورفّتا رفيفًا خجولاً ولم تجب. وأنا اللجوجة لم أتركها في وهدة صمتها. كان لديّ فضول لأكتشف الحقيقة:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ من أحببتِ أكثر؟ أبي أم الآخر؟

احتقن وجهها. تمازج فيه الخجل بالحرج:

ـ ما لك ولهذا الموضوع.

أضررتُ عليها:

ـ أريد أن أتأكّد إن كنت أحببتِ أبي ليصفو قلبي، فأنا لا أتذكّر إلاّ شجارك معه وصوتك الحادّ.

ما زلت أذكر ذلك الحزن الذي غيّم وجه أمّي وترسّب بعضه في عينيها وهي تعاتبني:

ـ أنت تظلمينني.

ما أردتُ أن أظلمها، لكنّي أردتُ أن أرفع ظلمي عنها بعد أن اعتدتها وألِفْتُ حنانها. أردتُ جوابًا شافيًا يريحني من شعور ثقيل ظلّت أكوامه رابضة على صدري لسنوات. شردتْ نظرات أمّي، أطلقت تنهّدات أليمة وبصوت مليءٍ بالصدق:

ـ أحببته.. أكثر من سواه.

فاجأتها. صببتُ جحيمي عليها بلا رحمة وكأنّ لساني احترف لغة الصراخ وضرب السيوف:

ـ لِمَ إذن تركْتِهِ وأقْصيتِنا عن حياتك؟ كنتِ قاسية وظالمة يا أمّي.

بكت أمّي بكاءً أشبه بالعويل، لم يكن ذلك البكاء الذي

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

رأيته يوم دخلتُ بيتها بعد الفراق، يومها تمنّيتُ لو ألتقط سرَّ دموعها، إن كانت دموع فرحها بلقائي أم دموع ندمها لأنّها قذفتني عن حضنها. نشيجها أكدّ لي أنّني آلمتها ـ ويلي كم فعلت! شعرت بفمي مُرًّا ولهاتي تتشقّق من الجفاف، مسحتْ ببوشيّتها دموعها ورشيش أنفها وصوتها الراجف يُبعثر الكلمات المالحة:

ـ (الجاهل ما يسمع إلاّ الصراخ. ما يسمع قلب الأمّ علشان يعرف منو الظالم ومنو المظلوم. آني أبدْ ما كنت ظالمة ومسعودة تعرف هذا).

أساها كالسكّين ذبح قلبي، ورغم ذلك استغللتُ فرصة دفاعها عن نفسها لأشفي غليل فضولي، فلا مسعودة حدّثتني ولا أبي سمح بفتح دفاتره القديمة. حين سألته ذات يوم عبس وتولّى بوجهه وقال (أسرار الزوجين ما لازم يعرفها أحد). ولعلّ أمّي شعرت بانتهازيّتي فأغلقت هي الأخرى دفاترها بوجهي.

* * *

في طريقي كانت التذكارات تفيض وتضاعف حزني، والأفكار الغريبة تهاجمني. (أمّي ماتت وأنا أواصل حياتي، غدًا أموت وتواصل عفاف حياتها. ما المبرّر إذن لنحبّ الأمّهات ثمّ نتوجّع؟). وجه عفاف يخترق المسافات وينتصب أمامي ليحشرني بدائرة الحيرة. (هل أخبرها بموت جدّتها؟ هل

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أوجعها في غربتها أو أكتم الخبر؟ أشعر أنّها لن تحزن على جدّتها بالقدر الذي ستحزن لشقائي. كانت منذ أن تركتُ بيت أمّي بعد تلك العاصفة تحاول رأب الصّدع وإنهاء القطيعة. لم أشكّ يومًا بحبّها لجدّتها، كنت أحسّ بأمنيتها وهي ترجوني:

ـ يُمّهْ.. خلّينا نزور جدّتي.

أحنو على رأسها المطروح على ركبتيّ، وبكلّ حنيني أنا الأخرى أتماسك وأعاند:

ـ لا أريد مشاكل. كلانا استراح من الآخر.

بكت عفاف ورشّتني باحتمال حارق:

ـ هل تستريحين لو عققتكِ يومًا وأغلقتُ بابي دونكِ؟

ارتعدْتُ.. فتحتْ عفاف نافذة للخوف. هبَّ غبار أسود وران صمت داكن، شعرت بروحي تنشطر، تتضاءل، وسنوات عمري التي أفنيتها لأجلها تطير هَباء منثورًا. (هل تعقّني وتهجرني؟ ويكون هذا انتقام الله منّي؟).

أخذتْ رياح الأسئلة تهزّ عذوقي، فيتساقط أمْني ويترجْرج استقراري. أصابني دوارٌ أسقطني في بحر الظلام لأبتلع زَبَدَهُ الأسود وملحه الأجاج وريقي يجفُّ ولا يسمح أن تخرج منه ولو آهة. انتبهتْ عفاف لمائها الحارّ الذي رشّتني به، وارتْ ارتباكها وهي تصكُّ عليَّ بذراعيها المرتجفتين. كنتُ مثل لعبة رخوة ممزّقة وعارية، لا تدفّئها شمس ولا نار. مُحاوَلة منها أن تعيد إلى جسدي دمه الهارب قالت:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ أنا طبعًا يستحيل أن أعقّك أو. . .

تخلّصتُ من حصار ذراعيها، غلبتني دموعي، لكنّي حين التقطتُ فزعها رشوتُ قلبي أن يهدأ ويدرّ عليها كلماتٍ لا تُسرّب مزازة المُرّ الذي تغلّف به حلقي. بصوتي الواهن قلت:

ـ أدري أنّك لن تفعلي.

لمع الهدوء والأمان بعينيها، وجاءني تبريرها بصوت أشبه بالمواء:

ـ كل ما قصدته أن أحنّنَ قلبك على جدّتي، وأعرفك تُحبّينها.

لم أنكر. لكن قلبي ما يزال يؤرجحني بين المدّ إليها والجزر عنها. وما تلفّظتْ به عفاف أرعبني، وعلى مضض وعدتها:

ـ سيأتي يوم ونزورها.

لكنّ اليوم لم يأت. . طال غياب أمّي في بغداد وسافرت عفاف دون أن تتكحّل عيناها بوجه جدّتها، وظللت أنا رهينة للحزن حتى جاءت جارتها ذلك اليوم وأنبأتني بعودتها. يومها أردتُ للفرح الذي كلّلني أن يُكلّل عفاف. اتّصلت بها لأبشّرها. طفح صوتها بالبشر واستحثّني:

ـ روحي لها بسرعة.

لكنّني قاومت تعجّلها:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ بعد عشرة أيّام سيهلّ عيد الأضحى، سأؤجّل الزيارة ليصير العيد لها عيدَيْن.

* * *

لم يكن مناسبًا أبدًا ذلك القرار فالحياة تمضي ولا تخضع لقراراتنا المؤجّلة، تدور عجلاتها مسرعة ولا تنتظر أزمان فوزنا أو سقوطنا. لا يهمّها إن حقّقنا أحلامنا أو سهونا عنها. فكيف والموت في ركابها يلاحق وجودنا ولا يعطي الإشارة والنذير. كان عليّ أن أسابق ركضها، لا أثق بمكرها، لا أتهاون في الوقت ولا أنتظر عيدًا أو مناسبة، لقد استقوَيْتُ على أمّي فاستقوى عليّ الموت وسبقني إليها.

* * *

وصلتُ إلى بيتي ووجه أمّي في نومته الأخيرة يلاحقني، وجسدها الملفوف بالكفن يسرّب رائحة كافوره وحزنه. هويتُ بإعيائي على سريري أهطل أمطار عيني وأطلب من الله أن يغفر لي عقوقي ويُجَمّل عفاف بالبرّ لي.

ترنّحتُ بِحَيْرتي قبل أن أمسك بسمّاعة الهاتف وأبلّغ عفاف بالخبر. جاءني صوتها معجونًا بالحزن، تواسيني وتحاول أن لا تغلبها رنّة اللّوم كيْ لا تنكأ جروحي وندمي. حين أغلقتُ الهاتف تحسّسْتُ قلبي، بحثتُ عن نبض أمومتي العظيمة تجاهها. هل كانت أمّي تحمل نبضي نفسه؟ هل كلّ الأمومات متشابهات؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

شعرتُ بالبرد. النافذة غير المُحْكمةِ تُسرّب زعيق الرّيح وهي تعبر المدى وتفلق السكون. هل فقدت وليدًا فاجأه ذئبٌ أو حاصرته أفعى فتهرع لتنقذه؟

الرّيح كالأمّ.. إن كان ولدها في خطر تعصف بكل شيء في طريقها، تُطيح بالشجر، تُقلّع الأبواب، تكسر زجاج النوافذ، ترُجّ البحر وتهُدّ الجبال حتى تلقاه، تضمّه وتهدأ.

وأنا... تلتوي أطرافي الباردة بحبال السؤال الخشنة. (لماذا لم تكن أمّي مثل الرّيح؟ تلهث نحوي، تنتشلني حتى من أحضان الأب الحنون؟ لماذا تركتني لريح اليُتم المبكّر؟ لماذا تأبّط قلبها الرجل الغريب وسوّرتْه بذراعيها بينما رهنتني للذراع مسعودة).

ضمّني اللّيل بحضنه لكنّي لم أنم. كيف أنام وأمّي تنام في الوحدة والظلمة؟ هل ستحكي للموت حكايتها؟ هل تراها معكّرة بالغضب أم وادعة في الصمت؟ هل ما تزال روحها ترفّ بالحياة لتغادر المأوى المعتم وتحلّ حيث الأحياء في البأساء والندم، أم تراها طائعة راضخة ترتفع إلى الرّب، ملجأها الوحيد؟ هل ستجد السعادة في كنفه أم تتمنّى لو تعود حيث السعادة في ضمّي وتقبيلي وإهدائي غفرانها الجميل، أنا التي خُنت حليبها ورائحة صدرها؟ من ذا يعود بعد الموت ليخبرنا سرّه الرّهيب؟

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لم أنم.. من أين يأتي النوم؟ موت أمّي سرى بي إلى دروب الموت. رأيْتني ميِّتةً. جسدي محمول إلى المقبرة والناس سائرون خلف جنازتي. وما إن غيَّبَ التراب جثّتي حتى انصرفوا عنّي وبقيت وحيدة في الضيق والضجر، والصمت الذي شقّته فجأة صرخة أمّي (خذها لا أريدها). تلك الصرخة التي شكّلت العلاقة بيني وبينها على مدى السنوات.

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

صوت الضّمير

ظللتِ يا لبنى تُفسحين للستائر السوداء مساحات شاسعة في ذاكرتك. كنتِ بإصرار تُرسّخين المشهد الذي شرخ طفولتك ليبقى وقودًا يُشعل حقدك عليها فتتشفّين بالانتقام منها غير آبهةٍ بعاطفتها. لم تحاولي، حتى حين كبرتِ، أن تستفسري منها عن أسباب ذلك العراك الدائم بينها وبين أبيك. عراك كان يُرجِف قلبكِ ولا يمنح طفولتكِ السلام. كان صوت أمّكِ هو الأحَدّ والأقوى ما دفعكِ أن تتحيّزي لأبيكِ، وهكذا رسمتِ لها صورة الظالم ولأبيكِ صورة المظلوم.

هو ذلك اليوم الذي تصوّرتِ أنّ أمّكِ نفضتكِ عن صدرها كما تنفض حشرة عالقة بجسدها. كان صرير ثورتهما وحوارهما العاصف يُدوّي كالرّيح ويُساقطك في الزاوية كزهرة مُفتّتة. حتى دموعكِ استعصت، مُفسحةً المجال لعينيكِ كي تتربّصا بهما بانتظار أن يهدآ ويرحما طفولتكِ الموشكةِ على التفتّت. أبوكِ أطلق سهم قراره: (سآخذها معي). أمّكِ صرختْ بملء غضبها: (خذها لا أريدها).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

اقترب أبوكِ منكِ. كنتِ متكوّمة على نفسكِ، مبلّلة بالعرق، والفزع، مسح على رأسكِ، شدّكِ، ألصقكِ إليه بقوّة يُهديكِ كلّ حضوره ليُهدّئ روعكِ ويُطفئ جمراتكِ. بداخلكِ تعاركت المخاوف، لمن ستكونين؟ في أيّ حضن سيكون استقراركِ ومأواكِ؟ ومسعودة التي أوجعها منظركِ ناحت بينهما قاذفة لومها القاسي مُستدرّة عطف كليهما ليرأفا بكِ، بطفولتكِ المُشرفة على التمزّق. لكن أمّكِ حَرَنتْ بعنادها وأبوكِ الغاضب تشيّمَ لكرامته. شدّكِ نحو الباب مُصرًّا أن يخرج بوجهكِ وقلبكِ المفجوعين. تسمّرتْ خطوتكِ. عيناكِ دارتا في المكان تعانقان فراشكِ المرتاحة عليه (كرديّتك)[1] و(سحّارة البرّوي)[2] ومداسكِ ذا الوردات الملوّنة الذي اشترته لك من بغداد.. كنتِ وكأنّكِ في لحظة تريدين أن تجمعي إلى صدركِ كلّ شيء يخصّكِ وتظلّي آمنة بجانبه. يدُ أبيكِ تسحبكِ بحنان، تحاول أن تنتشل خطوتكِ من معقلها. وعيناكِ باتّجاه أمّكِ.

* * *

كنتِ تأملين أن تهرع نحوكِ، تتمسّك بكِ وتصرّ على بقائكِ في حضنها، أو تزرع قبلات وداع على وجهكِ الملوّن بعفار

---

(١) الكرديّة: لعبة من القطن تصنعها الأمّهات.

(٢) سحّارة البرّوي: علبة الألعاب الخشبيّة.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

اللحظة. لكنّها لم تُحرّك ساكنًا. طفولتكِ غير المُؤهّلة بالوعي التقطتْ صرامة العناد على وجهها وأغفلتْ تلك المعاني المخبوءة وراء شحنة الغضب.

أصرّت مسعودة أن تودّع أمّكِ.. كانت من ارتباكها قد التحفتْ عباءتها مقلوبة، اقتربتْ من أمّك التي حاولتْ أن تبدو متماسكة، لكنّها فرطتْ بالبكاء حين حضنتها مسعودة بنشيجها المُرّ. تهامستا بكلمات لم تهتمّ طفولتكِ الحائرة أن تتشمّمَ بعض معانيها، وإلاّ لكنتِ أدركتِ كم كان سيْل التوصيات ينصبُّ إليها لتكوني محفوفة في عينيها وبين يديها، ولو استطاعت أذناكِ الرهيفتان أن تسترق السمع لعرفتِ سرّ وجوم أمّكِ الذي همسته لمسعودة:

ـ لا أريده أن يشمت بضعفي أمام لبنى.

كانت غير قادرة على احتمال فراقكِ، حتى احتضانكِ خَشِيتْ أن يَكسِر نفسها فتضطرّ أن تزحف إليه ذليلة متنازلة عن كبريائها المطعون بالإهانة.

كيف كان يتسنّى لكِ وأنتِ الطفلة أن تفهمي أوجاع روحها؟ كنتِ فقط تُشاهدين الأمّ التي تصرخ (خذها لا أريدها) وما كنتِ لتدركي أنّها صرخة امرأة مطعونة تبحث عن خلاصها حتى وإن قطعوا شريان قلبها الوحيد.

تلك اللحظة التي ابتعدتِ فيها عن أمّكِ لتسقط سنواتك

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الستّ في حضن مسعودة، ظلّت وحدها تحاصركِ، تُغذّيك بكراهيّتكِ للأمّ التي لا يعرف قلبها الكره والقسوة.

في الطريق حرّرتِ كفّكِ من كفّ أبيكِ المُتعرّقة، اندفعتِ إلى مسعودة التي تلقّفتكِ وهرج نشيجها يدلف بكِ إلى الموج العاصف.

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بيت غريب

(وين نروح؟).

سؤال خائف واجهتِ به أباكِ، فلم يترك سؤالكِ مُعلّقًا، أجابكِ بثقة وكأنّه قد أعدّك للأمر من قبل (نروح بيتنا الجديد). قبل أن تشهقي بسؤال آخر، بادرتْ مسعودة تُوضح لك (أبوك اشترى لنا بيتًا جديدًا). استدرتِ بكلّكِ إلى بيت أمّكِ. شيء بداخلك يكاد يعيدك إليه. كان حبّك لمرتع طفولتكِ ورائحة الأمّ فيه وخوفكِ من البيت المجهول يجعلك تقطعين الشوارع المتعرّجة والمستقيمة وأنت تحدّقين بكلّ شيء، أبواب البيوت المزخرفة بكتابات ورسومات الأولاد، المسجد ذو المئذنة القصيرة الذي كنتِ تنتظرين أباكِ عند فيء حائطه حتى ينهي صلاته ويكمل مشواره معكِ إلى السوق. عانقتِ الدكاكين الفائحة منها شتّى الروائح، وتلك الساحة الصغيرة المنصوبة بها (دوارف أبو علي، ولعبة أمّ الحصن). تتذكّرين كم استمتعتِ بها وصوته الشخين يغني (أمّ الحصن دارت زقّت ولا بالت). تأمّلتِ موقع عربات خيول (أبو صابر). وحوطة خرفان بيت

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

(الغنّام)، وأحواش الديوانيّات القليلة المرشوش ترابها بالماء الخريج[1]. كنتِ كمن يريد للصّور أن ترسخ في الذاكرة ولا تضيع، وحين أوقف أبوكِ سيّارة الأجرة وركب في المقعد الأمامي رفضتِ أن تجلسي بحضنه. سبقتِ مسعودة إلى المقعد الخلفي، استندتِ على ركبتيكِ مواجهة الزجاج لتظلّ عيناكِ تلتقطان المشاهد التي تمضين عنها إلى حيث لا تعرفين.

توقّفت السيّارة، ترجّل أبوكِ ومسعودة، كلاهما مُتخمٌ بعذابه. انحدرتِ والتصقتِ بمسعودة مُرتجفة باكية. خطوات قليلة قطعتموها قبل أن يقف أبوكِ أمام أحد الأبواب ويدسّ المفتاح. أشرع الباب وافتعل فرحًا ربّما ليخفّف عنكِ وطأة الغربة (هذا بيتنا الجديد. شوفيه.. وايد[2] حلو).

عيناكِ صافحتا الحوش الصغير، لم تألفي حوشًا مُبلّطًا بالكاشي، لا تراب يفوح منه رشوش الماء، لا بركة تتوسّطه، ولا قفص دجاجات يرتاح في زاويته. في جانبيه ليوانان تزخرفا حتى منتصفهما بمربّعات الفسيفساء الصغيرة الملوّنة. تتلاصق فيهما أبواب الحجرات ذات التيجان التي يتعرّج فيها الزجاج الملوّن. في الجانب الثالث امتدّ حوض زرع لم يكبر نباته بعد، وعند مدخل البيت امتدّت دكّة فُرشت بالسجّاد وتوزّعت عليها مساند ثخينة ذات ألوان بدويّة فاقعة. بيت غريب تتوه عيناكِ بين

---

(١) الخريج: ماء الآبار المالح.

(٢) وايد: كثير.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أرضه وسمائه دون فرح. صَوَّتَ أبوكِ الواقف عند إحدى الحجرات يناديك (تعالي شوفي غرفتكِ أنت ومسعودة).

فتح بابها فهبّت إلى صدركِ رائحة خالية من رائحة الأمّ والألعاب. تجمّدتِ عند العتبة، احتقنت محاجركِ، ماجت الأشياء أمامك صانعة أشكالاً غريبة تُذكّركِ بأحلام مفزعة تزوركِ في الليالي التي يتعارك فيها أبوكِ مع أمّكِ. صوَّتَ أبوكِ بحنان (ادخلي. شوفي غرفتك).

دخلتِ.. جسدك النحيل يرتجف، التقطتْ عيناكِ سريرًا في الزاوية ومسعودة تشير إليه (هذا سريركِ). صرختِ (لأ.. لأ هذا مو سريري). ودفنتِ وجهكِ في ثيابها. أفجعكِ منظر السرير الخالي من لحافك المُزيّن بالكشاكش والتطاريز. خاليًا من كرديّتك وسحّارة ألعابك. انفجرتِ بالبكاء ولم تهدأي تلك الليلة. أصابت جسدكِ حكّة غريبة طفحت بثورها الحمراء عليه فباشرتْ مسعودة تدهنكِ بالفازلين، وهي تُسمّي عليكِ وتقصّ لكِ حكاية مؤنسة لا ذكر فيها لصورة الأمّ ولا لأبواب تصفق بالغضب. هدأتِ، وقبل أن تدخلي في دهليز النعاس همستِ لمسعودة بصوتك المترقرق بالوجع (أريد ألعابي). مسحتْ على رأسكِ وطمأنتكِ (باكر يجيبهم أبوكِ مع باقي الأغراض والهدوم). تعجّلتِها بسؤال أكثر لهفة (وأمّي متى أشوفها)؟. شدّتكِ إلى صدرها، غلبتها دموعها وهي تواسيك (الله كريم. لازم بتشوفينها).

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ستّ سنوات مرّت يا لبنى. وباب أمّكِ مُوصد منسيٌّ، ونوافذها لا تتابع تسلسل سنواتكِ، كيف تكبرين! كيف تتغيّر ملامح وجهكِ، ألوانك، نموّ شعركِ، طول قامتك، استدارة جسدك، شكل أسنانكِ التي تساقط اللّبنيّ منها ونبتت بدلها فصوص رمّان لم تخلُ من تشوّه بسيط في المقدّمة. ستّ سنوات ولا شيء بوعيكِ يثير السؤال (هل كان قرار أبيكِ الذي فرَّ من عاصفة الغضب؟ أم هو قرار أمّكِ التي لم تعرفي سرّها فتغتسل روحكِ من الحقد عليها؟).

ستُّ سنوات لكنّكِ احتفظت بذكرياتها. كانت تمرّ ببالكِ مرور الطيف فتعصرين ذاكرتكِ باحثة عن نمنمات الوجه الذي نسج البُعد بينكِ وبينه غلالات لم تكن شفّافة بالقدر الذي يهديكِ حضوره كاملاً. مرّات لجأتِ لمسعودة تسألين، وتستذكرين، وكنتِ بهذا تنبشين غيمات الحنين في قلبها، فتمطر عيناها وهي تصفها لكِ كأنّها ماثلة أمامها، تؤكّد لكِ أنّكِ تشبهينها. كنتِ دون مراوغة تفرحين، تركضين إلى المرآة، تتجوّلين بوجهكِ عليها، تتأمّلين لونكِ الحليبيّ، صفاء عينيكِ البنيّتين، أنفكِ الدقيق، شفتيكِ الورديّتين، وشعركِ الطويل الناعم بلون الدّبس. في لحظة تتحرّك مشاعركِ المُسالمة نحوها. تشتاقين لو تتكوّمين في حضنها تكوّم قطّة بردانة وتلمحين في وجهها ظلّ ابتسامة تشبه ما تبقّى من ظلالها الباهتة، أو تسمعين صوتًا حنونًا يشبه ذلك الذي كنتِ تغفين عليه وهو يداعب لحظات نعاسكِ.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لا تطول تلك اللحظات فسرعان ما تنتفضين من هدأتكِ كمن لسعتها عقرب أو اقتحمتها شوكة، تنفرين من الذكرى، تصدّين الوجه الذي تشتاقينه، ينقبض وجهكِ، يشحنكِ ألمٌ غامض واللحظة الأخيرة تفاجئك (خذها لا أريدها). ينتفض شيطان الحقد، تردّدين دسائسه في سرّك (أمّي طردتني.. لأنّها تكرهني).

كنتِ هكذا تترنّحين بين الشوق والحقد فتُسدل الستائر ليلها المعتم بينكِ وبين مناوشات الصورة والصوت. تلك المشاعر العارضة المتناقضة لم تدفعكِ يومًا لتبادري بسؤال أبيكِ عنها. حتى عندما فاجأكِ الوهم ذات ليلة وأنتِ ما بين الصحو واليقظة بأنّها ماتت وأنّ أباكِ أخفى عنكِ الخبر ليجنّبكِ الحزن، لم تهتزّ عروق قلبكِ هلعًا كما يحدث عندما تصيب جسد أبيكِ رخاوة مفاجئة تلزمه الفراش، أو حين تمرض مسعودة وتتهاوى في فراشها كجمرة فيشقّ أنينها لحم قلبكِ. كلّ عواطفكِ نَمَتْ وترعرعت وأزهرت باتّجاه أبيكِ ومسعودة. كان حنانهما الدافق لا يترك مساحة تُشعركِ باليتم. لقد استسلمتِ لذلك الوهم بأنّ أمّكِ ماتت وكأنّكِ وجدتِ خلاصًا من التفكير الشائك، لم تتركي ولو خرم إبرة ينفذ منه السؤال كما الخيط الرفيع (لماذا حدث الفراق بينهما؟ ولماذا انتزعكِ أبوك وحرمها منك؟).

* * *

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

حكاية الأب

ما كنتُ أريد انتزاعها وهي بعد طفلة. هل أنتزعُ من الأمّ حبّة قلبها؟ وهل كنتُ أريد فراق أمّها وأنا الذي عاديت أهلي وفارقتهم لأجلها؟ من كان في ذلك الزمن يجرؤ أن يعقّ والديه؟ أنا فعلت ذلك من أجل عينيها. ومن أجل الحبّ الذي ظللتُ كلّ عمري أسيرًا له. حتى الزواج لم أفكّر به رغم طلب لبنى ذات مرّة. ما كنت أتصوّر أن تشاركني امرأة أخرى فراشي وبيتي. كانت أمّها عشقي الأوّل والأخير.

أذكر أوّل مرّة رأيتها. كنت أنوي الخروج لولا أن تناهت إلى سمعي ضجّة الضحك في الحوش، فتحت الدريشة وأطْلَلْتُ، فإذا بوجهها يرشّ بهاءه إلى عينيّ وكأنّ أشعّة الشمس تغازلني. سُحرت بها، ناديت أختي سارة وسألتها:

ـ من هذه العطرة الحمرة؟

قالت وهي تشير بعيدًا عنها:

ـ هذي زوجة الأستاذ عبّاس.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

تأفّفت مشيرًا إلى الناحية الأخرى:

ـ أقصد هذه.

بلا مبالاةٍ بتلهّفي أشارت إلى السمينة السمراء:

ـ هذي (عبدتهم) مسعودة.

طحنتُ بأضراسي أودّ افتراسها، خافت وأجابت بسرعة:

ـ هذي بدرة.

ـ يعني من تكون؟

ـ بنت الأستاذ عبّاس.

صفّرتُ وعيناي لا تفارقانها. وسألتُ سارة ثانية:

ـ قلتِ إنّ اسمها...؟

عبس وجهها وبلؤم أجابت:

ـ (يُمّهْ منك يالشيطان، قلت لك اسمها بدرة).

شهقتُ وأختي تغادرني إلى مجلس الحريم:

ـ صحيح بدرة وسطعت في قلبي.

كنت قد توضّأت لأخرج إلى الصلاة، لكنّني ظللت خلف دريشتي سابحًا في دهشتي، أختي سارة لاصقتها ربّما لتغيظني، أو ربّما لتهمس لها بسؤالي عنها وقد تمنّيت هذا. مضى الوقت ونسيت صلاتي. جمالها يحرّك الصخر، كلّما أتت بحركة

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

دُخت، وحين انسدلت عباءتها عن كتفيها وتلألأ بياضهما ارتعشتُ. طبّت بدرة في قلبي مثل نجمة. وفي سرّي لعنتُ أباها (يالملعون يا عبّاس كل يوم أشوف وجهك هالكسيف وما أدري أنّ عندك هالبنت الحلوة)!!

* * *

أبوها عبّاس الشويحي مهندس. جاء من بغداد واستقرّ في الكويت، تعامل معه الناس ووثقوا به، فاحت سمعتة الطيّبة وأمانته فوح المسك، تعرّف عليه أبي وسلّمه الإشراف الكامل على العمل والعمّال.

أمّها بثينة الجوهري، امرأة جميلة فارعة ممتلئة بانسجام، ماهرة تتقن فنون الخياطة وتزيين العرائس. خلال فترة قصيرة ذاع صيتها. في البدء تطوّعت بعملها، وحين امتدّت شهرتها إلى الأحياء القريبة والبعيدة وكثرت زبوناتها، حدّدت سعرًا مقابل عملها. مسعودة التي تربّت في بيتهم أصرّت أن ترافقهما إلى الكويت لشدّة حبّها لها وانتقل هذا الحبّ لبدرة الحلوة.

سطعت بدرة في قلبي. شعرت بشيء لا أدري كيف أصفه، هل هو النار أو الشوك؟ موجُ بحرٍ أم صخر! صار خيالي يسبح في اتّجاه يوم الجمعة الذي يتزغرد حوش بيتنا بحضورها مع أمّها ومسعودة وبعض نساء الحيّ. أختبئ خلف الدريشة مُتلصّصًا لألتقط وجهها وحركاتها وضحكاتها الرنّانة. ولم يكن من شيء يقطع متعتي إلاّ صوت أبي وهو يدعوني إلى صلاة

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الجمعة، كنت أتباطأ حتى يصرخ بي أخي الذي تلقّى بدوره صرخة أبي.

ذات جمعة تظاهرتُ بالمرض، وما إن غادرا البيت حتى نططتُ كالقرد أنتقل ما بين الحجرات، مارًّا بالحوش أنادي سارة لأيّ سبب، محدّقًا ببدرة التي تُواري نصف وجهها لكنّ بصرها باتّجاهي، تأكّد لي أنّها مهتمّة بي ممّا شجّعني على ملاحقتها أكثر بنظراتي.

تعمّقت العلاقة بين أمّي وأمّها، صارت تأتي خلال الأسبوع تُجالس أمّي أو تدخل معها إلى المطبخ لتساعدها. وكنت أقصد المطبخ مُتعلّلاً بأيّ طلب، أو ألبد وراء الدريشة الصغيرة أتابع الحركة في الداخل. أمّها وأمّي تنكبّان على الموقد تتجادلان حول كمّيّة الملح والبهار أو عدد كيلات الأرزّ، وبدرة الحلوة تجلس في الركن قريبة من موقعي تهرس الطماطم أو تقشّر البطاطا. أتنحنح فترفع بصرها نحوي ثم تخفضه وقد تشبّع وجهها بالخجل. (آه يا بدرة شلون أطولُكِ؟ وكيف أصيدكِ؟).

كان الحلم مستحيلاً، لكنّ الحظّ خدمني حين اقترحت أمّي على أبي أن يسكن عبّاس وأسرته في حوش جدّتي المهجور منذ وفاتها. كنت خائفًا أن يرفض أبي لكنّه رحّب وقال لأمّي (يستاهل الأستاذ عبّاس) وأردف وهو يتربّع ليتناول وجبة عشائه (وزوجته خوش مَرَه)، وداعب أمّي وهو يضحك (يكفي أنّها علّمتك بعض فنونها).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

صارت بدرة قريبة منّي. لا يفصل بين حوشنا وحوشهم سوى (الفرية)[1] الصغيرة. استأنست أمّي بجيرة بثينة التي اهتمّت بأختي سارة وأخذت تعلّمها فنون الخياطة والتطريز وتصادقتْ معها عمّتي أمينة والجارات القريبات. انتعشت جلسات الجمعة بنوادر وفكاهات خاصّة من مسعودة. وبمرور الوقت نشأت ألفة وصحبة بين بدرة وأختي سارة ممّا أنعش قلبي، فقد صارت وسيلتي للاتّصال ببدرة عبر رسائل تنقلها بيننا. كنت مطمئنًّا لأنّ سارة لا تقرأ، فقد خضعت لعادات وتقاليد ذلك الزمن، بينما جاءت بدرة من بغداد وهي في الصفّ السادس. سارة الذكيّة فهمت عاطفتي وبدأت تلاحقني وأنا أتسرّب في القيلولات إلى فرية الباب. اصطادتني مرّة وأنا أقرص كفّ بدرة، ومرّة وأنا أعابث غرّتها. ويبدو أنّ الغيرة تسرّبت إلى قلبها وهي الأقلّ علمًا وجمالاً، أو ربّما خشيت أن ينكشف السرّ ويعرف أبي بأنّ لها ضلعًا في قصّة الحبّ. لكنّها إثر شجار بيني وبينها أفشت السرّ لأمّي التي لم تسكت. بدأت تلاحقني مرّة بالنصيحة:

ـ (يا عبد الوهّاب. جوز عن البنيّة لا تفضحنا مع الأوادم).

ومرّة بالتذكير:

ـ (يا وليدي هذول مو من ثوبنا).

---

(١) الفرية: فتحة في الحائط بين الحوشين.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ومرّة وهي تحلف وتتوعّد:

ـ (واللهِ المشترف في سماه. إن ما تبت عن سوالفك، أقول لأبوك).

لكنّني، مدفوعًا بالشوق، كنت لا أقدر أن أتوب.

أخبرتني بدرة أنّ أمّي كلّمت أمّها ونبّهتها أنّ أبي إن عرف سيغضب. بثينة الحريصة على صداقة أمّي ورضاها وبّخت بدرة وحذّرتها لكنّ بدرة مثلي لا تتوب.

فاجأتني أمّي يومًا وأنا أتضاحك مع بدرة، أمسكتُ بذراعها وصرخت بها:

ـ (جوزي عن الولد يا الوكيحة).

يبدو أنّ بدرة كتمت عن أمّها لكنّها أفضت لمسعودة. فقد سمعتها وهي تعاتب أمّي برجاء:

ـ (لا تكسرين خاطر بدرة.. هذي وحيدة أمّها وأبوها ومدلّلة).

قبل أن ينبس غضب أمّي عاجلتها مسعودة:

ـ (بدال ما تلومين البنيّة قولي لولدك يكفّ عنها).

لا أنسى كيف داهمتني أمّي غاضبة وشاعرة بالمهانة:

ـ (شفت آخرة فعايلك. خلّيت حتى العبدة مسعودة تتطاول عليّ).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

خفتُ من غضب أمّي ووعدتها أن أتوب ولكن كيف؟ لقد غطستُ بالحبّ. في النهار أستعجل الوقت لأعود من عملي في محلّ أبي لبيع التمور. وفي الليل أتقلّب ولا أعرف لذّة النوم. بدرة سيطرت على قلبي وعقلي وصارت الوسواس الخنّاس الذي يلازمني. فقرّرت أن أصارح أمّي برغبتي في الزواج منها. ما كدت أفعل حتى صرخت وكفّاها تتناوبان بالضرب على رأسها:

ـ (اللهُ أكبر عليك يا عبيد[1]!! أنت جنّيت؟ لو عرف أبوك والله يذبحك).

* * *

للسرّ رائحة فريسة تجذب الصقور والغربان. عرف أبي وأخي وعمّتي. اشتعلت النّار. ألسنة تستنكر، وتهدّد بالويل وبالثبور، وأنا أتمسّك برغبتي. حلف أبي يمينًا عظيمة:

ـ (ما تتزوّج بنت الأغراب. وإن سوّيتها أتبرّأ منك وأطردك من بيتي وأحرمك حلالي).

أمّي توسّلتني:

ـ (يا وليدي هذا أبوك (مبارك) وأعرفه زين، إذا قال كلمة ما يثنّيها).

---

(١) عبيد: تصغير لاسم عبد الوهّاب.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أخي سعود الأكبر منّي ذكّرني:

ـ (نسيت أنّ أبوك من زمان خطب لك بنت عمّك)؟

عمّي يعقوب الذي يحبّني تدخّل ناصحًا:

ـ (لا تخلّي أبوك يغضب عليك، فكّر بأمّك هالمسكينة، باكر يحرمها منك).

اشتعلوا ضدّي فاشتعلتُ أكثر بحبّها ورغبتي بها. أبي الذي صدمه الأمر تصرّف بقسوة وطرد أباها من العمل ومن حوش البيت. تمزّق قلبي، شعرت أنّني المسؤول عمّا أصابهم. نفر الناس منهم وتآزروا مع أبي. قطعوا تعاملهم مع عبّاس، وأغلقت النساء أبوابهنّ في وجه أمّها. انهارت أحوالهم المادّيّة وما كنت أملك سوى راتبي من أبي، لكنّه طردني من العمل فاضطررت للعمل عند أحد تجّار الجلود. حاولتُ مساعدتهم ولو بالقليل لكن أباها رفض. كرّرتُ طلبي الزواج من بدرة فثار في وجهي:

ـ (الله يخلّيك، لا تفكّ ويّاي هالباب).

حاولت مع أمّها بلين شديد فتوسّلتني:

ـ (ما نريد مشاكل ويّا أهلك، إصبر عليهم).

وصبرت.. على ألمي صبرت، على همّي صبرت. كنت أرى بدرة ويرتاح قلبي وأرى أمّي التي تنوح فيتألّم قلبي. أرى وجه أبي الغاضب الصادّ عنّي وأتألّم. كنت بين نارين، نار

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

حبّي لبدرة ونار أهلي الغاضبين، وكل نار كانت أشدّ من الأخرى. وأقسى منهما نار الصّبر والانتظار. حتى جاءت الفاجعة التي هزّت قلب الحبيبة وأمّها، لكنّها كانت بالنسبة لي باب الرحمة الذي أدخلني جنّة بدرة. سقط الأستاذ عبّاس بموْتة فجائيّة. وبمرور الوقت لانت أمّها وقد ساهمت مسعودة بذلك حين نبّهتها أنّها وابنتها شابّتان ولا يجوز أن تتعرّضا لكلام الناس، خاصّة أنّني أكثرت من التردّد إلى منزلهما. وافقت أمّها... وهكذا عققتُ أمّي وأبي، وجرُؤتُ رغم التقاليد الصارمة أن أتزوّج بدرة غير آبهٍ بما سبّبته لأهلي الذين صارت حكايتهم مُضغة في أفواه مدينتنا المنغلقة.

* * *

مضت شهور ونحن غارقان في بحور العسل. لكنّه تعكّر حين قرّرتْ أمّها العودة إلى بغداد. بدرة الملتصقة بأمّها وبمسعودة فتحت قنوات التوسّل، أمّها لا تحيد عن قرارها. ولم يكن من عزاء لبدرة إلاّ بقاء مسعودة معنا ووعدي أن أسمح لها بزيارة أمّها بين وقت وآخر.

قلبي السعيد ببدرة ظلّ مُدكنًا بالألم، فأبي الذي كسرت كلمته ظلّ غاضبًا عليّ وبابه مغلقًا في وجهي. أمّي التي حُرمْتُ من زيارتها كانت تغافل أبي وتأتي لتراني، تقف بالدهليز كارهة أن تدخل وترى بدرة، أخي سعود كان يلاقيني في السوق، عمّي لم يتخلّ عنّي. كان يزورني تسبقه عطاياه وتولّى دفع أجرة

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

البيت. أختي سارة لم أشهد عرسها، أبي كان جبّارًا بعناده. تزاحمت عليه الأمراض وظلّ غاضبًا متبرّئًا منّي حتى لحظة موته. كنت أقف ذليلاً وأنا أتلقّى العزاء، فكلّ العيون كانت تلومني. وأمّي حين عانقتها ناحت وصوتها يُدينني (أبوك مات بحسرته).

ظلّت الحسرة بقلبي، رفضت أن آخذ حقّي من إرثه، تصوّرتُني أسرق ماله بعد أن سرقت راحته وعجّلت بموته. عمّي هوّن عليّ مُؤكّدًا أنّ هذا حقّيَ الشرعي، وأخي لفتني لوضعي وأصرّ أن أوسّع على نفسي بعد الضيق.

لم يُدخل المال الفرح إلى قلبي، رغم أنّه أبهج بدرة بالبيت الجديد وفتح لي أبواب العمل بالتجارة فتضاعف دخلي. مضت ثلاث سنوات قبل أن تُقرع الأجراس في بيتنا حين بشّرتني بدرة بأنّها حامل. هلّت نسائم الجنّة، وزغردت مسعودة بأعلى صوتها، قالت وهي تعانق بدرة:

ـ (الحمد لله مثل ما ربّيتك بربّي عيالك).

لكنّ أمل مسعودة وأملي خابا. فلم يأت من العيال غير لبنى التي ما إن خطت في أرجاء بيتنا حتى بدأتْ سُحب المشاكل تنثر دخانها، فقد كثُرت زيارات بدرة لأمّها. إن رفضتُ حرمتني متعة الفراش. وإن رضختُ تأخذ معها لبنى التي تعلّق بها قلبي تعلّق الجذر بالأرض. كانت تغيب أكثر من شهر في بغداد. فينفلش حولي الفراغ ويفارقني النوم. أهرب من البيت إلى بيت

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

عمّي وأختي سارة وأمّي التي شابت وما تزال حاقدة على بدرة. حرّضتني أكثر من مرّة:

ـ (إذا ما تسمع كلامك، تزوّج عليها أو طلّقها وخذ بنتك منها).

أطلّقها؟.. أنا أطلّق بدرة ال.. ما تزال ساطعة في قلبي سارية في شراييني؟ هل خرّفت أمّي أم تناست أنّني عققتهما لأجلها؟ لكن بدرة لا تستجيب لرجاءاتي. بدأت محاولاتي معها برقّة ولطف، ثم بدأ الغضب يفجّر المشادّات الصغيرة:

ـ (يا بدرة يا عيوني ترى هذي مو حالة).

ـ (يعني شلون؟ ما أشوف أمّي؟).

ـ (أنا ما حرمتك من أمّك لكنّي زوجك ولي حقوق).

ـ (وحقوقي؟ ما تفكّر فيها؟)

ـ (ما حرمتك من شيّ يا بدرة).

ـ (وعيشتي بهالبيت اللّي ما يدقّ بابه أحد. حتى أهلك ما يحبّوني).

ـ (أنا أحبّك.. هذا ما يكفي؟)

ـ (الحبّ ما يكفي، أنا ملّيت من هالحبسة، عند أمّي أحسّ بحرّيّتي، أشوف الدنيا وأستانس).

ـ (شنو المطلوب حتى تستأنسين وأنتِ في بيتك؟)

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ (خلّيني أطلع، أشوف الناس وأكلّم البشر أو خلّيني أتلهّى في الخياطة مثل أمّي).

أشفقتُ عليها. حبّي لها دفعني أن أحقّق رغبتها لتفعل ما يُبدّد مللها ويؤنسها. أشرع باب البيت للنساء ومجالسهنّ. أخذت بدرة تمارس الخياطة فتراكمت بُقج الثياب والماكينة تواصل هديرها. قلّت أسفارها وكنت أراها سعيدة ورشيقة كالحمامة، لم تهمل زينتها وإبراز مفاتنها التي أتشهّاها، لكنّها تعوم في انشغالها عنّي وعن لبنى التي تولّتها مسعودة. تغيّرت بدرة، تلك التي كانت عاشقة ورضيّة، شحَّ ودادها، انطفأت فتائل شوقها، صارت تنفر من ملامستي، كثر هجرها للفراش. صارت لا تندسُّ قربي إلاّ أسبوع عادتها الشهريّة الذي لا يسمح بالمعاشرة والحمل. بدأت الوساوس تنخر بعقلي، هل تذوّقت في أسفارها فاكهة غير فاكهتي؟ كنتُ بكلّ حبّي لها أصدُّ تلك الهجومات كي لا أظلمها وأعذّب نفسي. وظللتُ أعاتبها مرّة باللين ومرّة بالغضب. وذات مرّة قالتها بوضوح:

ـ (آني ما أريد عيال غير لبنى).

ـ (وتقطعين نسلي؟)

مسعودة الطيّبة سعت بيننا بالخير، نصحتها ثم هدّدتها:

ـ (جوزي من أفعالك، الرجّال ما يصبر، باكر يتزوّج عليكِ).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لم تهتمّ أو تهتزّ. كانت واثقة أنّني المُتيّم الذي لا يجرؤ أن يفعل. أردت أن أشعل نار غيرتها وما حسبت أنّ (النار ما تحرق إلاّ رجل واطيها). بدأت أتعمّد العودة إلى البيت أثناء وجود النساء عندها. أحيّيهنّ وأمازحهنّ. زعلت مرّة ففرحت. تصوّرت الغيرة التي ستثيبها إلى رشد الحبّ، لكنّها لم تُبدِ سوى السخرية من تصرّفي. مسعودة طلبت أن أكفّ عن إثارتها حتى لا تتمادى بعنادها واعدة أنّها ستعقّلها. لكنّها فشلت. فقرّرتُ أن ألقّنها درسًا يوقظها من الغفلة ويعطيها الإشارة بأنّ العاشق الولهان والزوج الوفيّ لم يعد ذلك الذي تعهده. كانت إحدى زائراتها الجميلات تلاحقني بنظرات الرغبة ولا أباليها، فبدأتُ أهتمّ بها، أمتدح جمالها وأتعمّد أن أرافقها إلى الدهليز وأمكث معها وقتًا لأثير انتباه بدرة. بدأتُ أحيك خيوطي وأرسم خطّتي لليوم الموعود.

* * *

ذات عصر كانت بدرة في الليوان تحيط بها النساء وتلك المرأة التي رسمتُ خطّتي عليها. اقتربت منها وخصّصتها بسلام حارّ ودعابات خفيفة غير مبال بنظرات النساء. احتقن وجه بدرة وبدت عصبيّة وهي تشقّ القماش بأسنانها وكأنّها تتمنّى لو تشقّني أنا. وجدتُ الوقت مناسبًا لأصبّ قطرة الكاز على الجمر، أومأتُ للمرأة برأسي لتلحق بي فطفح الفرح على وجهها. وقفتُ عند الدرج المؤدّي إلى السطح، سمعتُ المرأة تستأذن لتغادر، مشتُ نحو الدهليز ثم انعرجتُ بخفّة حيث

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

مكاني. تعمّدتُ أن أتنحنح لألفت نظر بدرة التي التقطت رفيف عباءة المرأة وهي تسبقني على الدرجات.

لم يكن قلبي شغوفًا بالمرأة، كنت فقط أريد رجَّ بحيرة بدرة المُطمئنَّة وإذابة جليدها وإثارة غيرتها لعلّ وعساها أن تصحو من غفوتها.

وصلتُ إلى غرفة السطح. ألعاب لبنى مبعثرة، أزحتُها بسرعة، وإذا بالمرأة تفاجئني بهجومها وكأنّها اكتوَتْ بنار انتظارها. حضنتني وهي تبعثر قبلاتها اللاهبة على وجهي. أبعدتُها آمرًا:

ـ تمهّلي... ليس هكذا.

ونْوَنَتْ بصوتها المرتعش:

ـ أخاف أن تحسّ فينا بدرة وتلحقنا.

ما أغباها! أنا الذي أريد أن تحسّ بنا بدرة وتهرع لتمسك بجُرميَ المفتعل. التصقتِ المرأة بي، لم يثرْني التصاقها فقد كان عقلي منشغلاً وعيناي مُستثارتين نحو الباب تستعجلان هجوم بدرة. كنت خائفًا ألاّ تفعل فتفشل خطّتي وأسقط بعدها في براثن المرأة التي تصوّرتني عاشقًا مُتيّمًا بها.

جاءت بدرة. سمعتُ دبيك قدميها العجولتين. خفق قلبي حدّ الهلع وكان عليّ أن أبدأ. هويتُ على المرأة، كفّي على فخذها المكشوف، ووجهي مدفون بصدرها الذي تفوح منه

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

رائحة حامضة أوشكتْ أن تخنقني لكنّني احتملت حتى سمعت صرخة بدرة:

ـ يا الكلب.. يا النجس.. يا النذل.

انتفضتُ عن المرأة متخلّصًا من روائحها ومرتاحًا لخلاصي. وقبل أن تُلملم نفسها كانت أظافر بدرة تنغرز في وجهها وتقطّع بشعرها. عضّت بأسنانها على ما انفرج من زندها وهي تفحّ بالكلمات الصارخة بالبذاءة (يا القحـ.. يا أم الـ... الحار).

فرّت المرأة بجلدها المنهوش وشبقها المُنطفئ. وأنا!! كيف أفرّ؟ سعادتي بنجاح خطّتي تلاشى. وخشيتُ ألاّ تسامحني بدرة.

حين دنوت منها في الفراش خرج صوتها مليئًا بالقرف:

ـ (يا الوصخ.. بعد ما ريدك.. ولو تموت ما تلمسني بنجاستك. عابت عليك. أنت مو رجّال).

نخر السّوس أيّامنا. لم تغفر بدرة رغم اعترافي بأنّها مجرّد خطّةٍ لتحريكها، ظلّت تعيّرني بفعلتي. هجرتني وكأنّني كلبٌ أجرب. أصرّتْ أن أطلّقها، صرختْ بطلبها عشرات المرّات ولم أستجب لها حتى قذفتني بحقيقة حطّمت قلبي:

ـ (ولّك ما ريدك.. ما أحبّك.. ماكو أخلاق همّين ماكو كرامة؟).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ضاعت كرامتي وأصررتُ ألاّ أخضع، فحبّها معرّش بقلبي مثل (السّدرة) التي أحتاج ظلّها لأجلي وأجل لبنى. لم يسعفني قلبي ولا اللسان أن أنطق بالطلاق، كرّرتُ محاولتي لإرضائها، ناشدتها الرحمة والغفران:

ـ يا بدرة، الله يغفر لعباده.

ـ (آني مو الله.. روح، خلّ ربّك يغفر لك).

ركبتها موجات العناد. ذات يوم صبّت الكاز على ملابسها وهدّدت أن تحرق نفسها، استخدمتُ آخر وسائلي للضغط عليها، هدّدتها أنّني سآخذ لبنى وأحرمها منها. تصوّرتها ستفزع وتثوب لكنّها صرخت غير مبالية (خذها لا أريدها). مُرغمًا طلّقتها. وخرجتُ بلبنى التي أصرّت مسعودة أن تحتضن يُتْمَها بذراعيها وقلبها.

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

احضانُ الأب ومسعودة

حُضن مسعودة كان الأرض الآمنة بعد أن عصفت الرعود وأطاحت بأساسات البيت القديم. مارستْ دور الأمومة بجدارة، منساقة بذلك الحبّ الكبير الذي حملته لأمّكِ وجدّتكِ. وهبتكِ حنانًا عوّضكِ فراق الأم. ووهبكِ أبوكِ سنوات عمره، ما كنتِ قادرة خلالها أن تتلمّسي رؤوس جراحه التي اجتهد أن يخفيها لعلّ الصبر يُلئمها ويشفيها. كانت لديه من الاشتهاءات والحاجات ما لا تستطيعين تحسّسَه بداخل رجل محروم. فراشه بارد بلا امرأة وقلبه وحيد بلا حبّ. اختار أن يترهْبَنَ في محراب طفولتكِ، دلّلكِ، أحبّكِ حُبّين، حبّ أبٍ آلمه يُتمكِ، وحبّ أمّ مارسه بطرق شتّى. كان يرتّب لكِ فراشكِ، يخطف المشط من مسعودة ليمشّطكِ، ويمسكُ بالخيط والإبرة ليعيد تركيب أزرارٍ سقطت من فستانكِ، يجلس إليكِ بالسّاعات يحاذيكِ ويحكي لكِ بعض ذكرياته، وفي أماسي الصيف يصحبكِ ومسعودة إلى البحر، هناك علّمكِ كيف تعشقين الزّبدَ، الرمل، القواقع، روائح الزّفر وحنان الماء،

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

يتسابق معكِ، يتباطأ لتسبقيه ويفرح بانتصاركِ. يجلس بعد التعب ليبني لكِ بيوتًا وقصورًا من الرمل فتأتي الموجات الفضوليّة لتدكّ ما بناه، (تتنهْوصين) فيعيد لكِ ما تهدّم. وحين يلمح رُمّان ثغركِ مُتلألئًا، يرسم لكِ الحلم الأكبر (حين تكبرين سأبني لكِ قصرًا تملأينه بالعيال). يتأبّطكِ إلى السوق، يشتري لكِ الحلويات والألعاب التي تحبّينها. تعترض مسعودة فيؤنّبها (خلّي البنت تفرح، يكفي أنّها محرومة من أمّها).

رغم الخَيرات التي أغرقكِ فيها أبوكِ، ظللتِ يا لبنى تفتقدين أجواء الأسرة. قليلاً كنتِ ترين عمّتك التي ظلّت تحمل حقدها على أمّكِ، وقليلاً تزورين بيت عمّكِ الذي يُدلّلكِ، كنتِ تستعذبين اللهو مع بناته وتفرّين من ملاحقة ولده الذي يمازحكِ جاذبًا جديلتكِ الطويلة ملمّحًا بأنّه سيقصّها، فصرتِ تخافين زيارة بيتهم.

ظلّ أبوكِ ومسعودة هما عالمك الوحيد. حتى جاءت المدرسة. عالم جديد سعدتِ به وفرحتِ بحبّ المعلّمات وبأجواء الصداقات خاصّة مع ماري التي أصبحت الأقرب إلى روحكِ. كان أبوكِ يتابع دروسكِ باهتمام وفرح. كان لا ينام قبل أن تكملي واجباتكِ. لاحظ كم كنتِ شغوفة بالقصص والأناشيد، شجّعكِ، اشترى لكِ المزيد من الكتب. لم يغفل موهبتكِ التي أسعدتْ بواكيرها قلبه وقلوب معلماتكِ.

ستُّ سنوات أخرى مرّت بلا عواصف وبروق. حتى جاء

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

اليوم الذي هزّت الرّيح فيه عرائش أمانكِ وألقت بسعفها وقُرْمها فوق رمادات الزمن المحترق فأشعلت جمراتٍ منه منسيّة.

كنتِ ترتّبين كتبكِ حين دخل أبوكِ بعد صلاة الجمعة عابسًا، مكفهرًّا، وبقدر ما استطاع كان يداري نظراته عنكِ. همس بصوت غير مرتاح لكنّ الهمس وصلكِ دويًّا كالرعد (أمّكِ طلبت أن تشوفكِ). ارتجفتِ. سقط الكتاب من يدكِ، حجبتِ الدّوخة وجه أبيكِ، بحثتِ عن لسانكِ الذي تشمّع في سقف حلقكِ، وما إن اصطدْتِهِ حتى انطلق شاهقًا ودامیًا (أمّي...!؟). أدرك هول المفاجأة عليكِ، تعمّد حدّة في صوته ليشعركِ بأنّ الأمر ليس غريبًا (إيه... أمّكِ. هل نسيتِ أنّ لكِ أمًّا؟). لسانكِ التوى حتى الحنجرة وقرفص هناك، سدَّ منافذ الصوت، اختناقكِ أجحظ عينيكِ باتّجاه وجهه الذي لم يَخْلُ من ارتباكٍ أصفر. أبوكِ ينكشُ قبرًا جفّت تربته ويبعث روائح الموت والموتى، يسألكِ إن كنتِ نسيتِ وقد حسبْتِهِ الذي نسيَ وأنساكِ. هل يمازحكِ؟ أم تراه لم يصْحُ من حلم غريب غزاه البارحة؟ هكذا فكّرتِ. أسئلة متشابكة تمطّت في داخل روحكِ وبعث أزيزها رياحًا تُقوْلِبُكِ مثل كرة تدور وتدور ولا تجد ما تستند إليه. مسعودة تنبّهت لعصفكِ. احتوتكِ بذراعيها الحنونتين. تحجّرتِ في حضنها لكن صوته الذي لا يشبه صوته فتّتكِ، أعادكِ إليه (هي ملهوفة عليكِ. وقد وعدتها أن تزوريها عصر اليوم). سريعًا بعثها أبوكِ أمامكِ، وسريعًا أعطاها الوعد، وسريعًا نطق لسانكِ (لقد حسبتها ماتت.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ونسيتها). حزينًا قال (أمّك بخير. هي تشتاقكِ ولا أريد أن أحرمكِ منها). ريحُ غيظكِ الساخنة جعلتكِ تصرخين وكأنّكِ تدافعين عن أمّكِ (لقد حرمتها منّي ستّ سنوات). أحسّ بمطارق الاتّهام في صوتكِ، أراد أن يردّ التهمة عنه فألقمكِ جمرة أخرى (لم أحرمها منكِ. بعد طلاقنا سافرت إلى بغداد وعادت قبل يومين مع زوجها). اهتزّتْ الجمرة، لسعتْ حلقكِ، فجّرتْ حريقًا أكبر من سنواتكِ (تزوّجت!؟) بصوت حزين دافع عنها (هذا حقّها.. أمّك شابّة وجميلة، وألسنة الناس لا ترحم) لم تحتملي رأفته بأمّكِ التي لم ترأف بكِ وبه. صرختِ وكأنّك تقصدين أن تردّي لها صفعتها القديمة (لا أريد أن أراها).

* * *

ليس له من منقذٍ غير مسعودة (عقّليها يا مسعودة). تعاظم عنادكِ (لن أذهب، لقد نسيتها). همس أبوكِ بصوت يأمل بنبرته أن يزحزح عنادكِ (لكنّها ما نسيتك). انتظر أن تلبّي رغبته وحين لم تفعلي فاح أمله حنونًا حتى مسّ أخمص قلبكِ (لن تعانديّ أباكِ الذي يحبّكِ).

أطلقتِ نشيجكِ، التويتِ بحضن مسعودة، صرختِ بعبارات غير مترابطة، دنا واستلّكِ من حضنها. مسح على رأسكِ، رفع وجهكِ المضطرب بالألم والعصيان وذكّركِ (أوصى الله بالوالدين إحسانًا، لا تكوني قاسية على أمّكِ). نهْنه صوتكِ بالآهات، لم تجيبي، شعر أنّه كسر بعض عنادكِ، ركّز نظراته

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الحانية في عينيكِ المغشيّتين بالدموع وهمس بسؤال أشبه بالقرار (ستذهبين).

كان الأمر الحاني. وما تعوّدتِ عصيان الذي أحبّكِ وأفنى سنواته وحيدًا لأجلكِ. كان طامعًا أن تحقّقي له الراحة بقبولكِ. تهاوت صخرة عنادكِ وصوت مسعودة يساهم في دحرجتها. قالت لأبيكِ (مالكْ إلاّ طيبة الخاطر، لبنى ما تعصي أمرك). هزّ رأسه واثقًا وغادركما.

أسرعتِ إلى فراشكِ، التجأتِ إليه كالغيمة، هطل دمعكِ الدامي وبجانبكِ انتظرتْ مسعودة وهي تمسّد على ظهركِ حتى هدأتِ ورفعتِ وجهكِ إليها، مسحتْ دموع عينيكِ المتورّمتين وداهمكِ سؤالها (بتروحين؟). أومأ رأسكِ بالإيجاب. كفّا مسعودة تتلقّفان ثقل قراركِ ورأسكِ الوجيع والموّار الهادر بداخلكِ ينسف هدوء سنواتكِ. يهزّ غصونكِ المرتاحة. وجه أمّكِ بين الهدير بالكاد يستقرّ، لا تحدّدين إن كان مُبتسمًا أو باكيًا. لا منجاة لكِ من التأرجح اللاهث إلاّ صدر مسعودة فأهدرتِ عليه نفسكِ.

* * *

منذ أن صدر قرار أبيكِ استبدّ بكِ ألم جارف لا تحدّدين من أين ينبت ويتوزّع في كل جسدكِ ثم يتلملم ويتكوّر ليستقرّ في بطنكِ. ضغطتِ عليه، صرختِ، هلعت مسعودة، سارعت تدفئكِ بكوب الزعتر والليمون. يهدأ الألم ثم يهيج ثانية وما

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بين الألم والراحة هدنة تسمح لكِ أن ترجّعي ذاكرتكِ. تزيحين عنها الغلافات المتكلّسة وتنبشين ركام الصور القديمة فتلمحين ذلك البيت الذي رنّتْ فيه خطوتكِ الأولى، وذلك الحوش الترابيّ الذي حفر النمل فيه أوجاره وتناسل فيها، قفص الدجاجات الذي تستلّ كفّكِ منه البيض طازجًا ودافئًا، وتلك غرفة السطح التي تكدّست فيها عفوشات قديمة والتي كنتِ تحشرين نفسك وألعابكِ بينها.

وجه أمّكِ المفرفر بداخلكِ كعصفور يقتنص فرصة الهدنة، يحدُقُكِ بتوسّل لتتذكّري وتسطعي بمشاهد من حنانها، لكنّكِ بعنادٍ تتصدّين لتوسّلها وتسدلين الغلائل القاتمة كيْ لا يُبعث أمامكِ الشيء الجميل الذي يحقّق لها العدالة.

آه يا لبنى. لو أزحْتِ حقدك وغضبك لتواترتْ عليكِ الصّور الأدهش، لرأيْتِها في النهارات جالسة إلى ماكينتها تخيط لكِ أجمل الثياب وتطرّزها، وأنت مثل قطّة تحوسين بقربها تلتقطين القصاصات وتلفّين بها ألعابكِ، فتبُرّكِ على الثوب الذي بين يديها لتخيط للألعاب فساتين وسراويل وعباءات. كانت ترافقكِ إلى قفص دجاجاتكِ وأرانبكِ لتنظّف أوساخها وتُطعمها. وفي المساءات تداعبكِ وهي تسكب الماء الدافئ لتغسلك من عفارات اللهو. تمشّطكِ، تدهن شعركِ بـ (البريل كريم) وتدهن جسدكِ بدهن الورد، تبقى بجانبكِ وصوتها الوديع يقصّ عليكِ الحكايات حتى تخدري وتنامي.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

تذكّري يا لبنى ليالي مرضكِ وتعسّر نومكِ، كانت تقرفص محمومة قرب فراشكِ ساهرة قلقة. تذكّري.. لتدلف إلى خشمك روائح ثغرها، شعرها، ثيابها العابقة بـ (كلونيا أم بنت) وروائح صدرها الأموميّ وهي تضمّكِ حتى تكاد أن تزهق أنفاسكِ حُبًّا. سيأتيكِ كل وجهها الجميل بشروقه لا بلحظة غضبه الأخير وصرختها الموجعة (خذها لا أريدها). وحدها اللقطة الراسخة تنتصب وتضاعف الألم فلا تشعرين بالشوق إليها، فكيف وقد عرفتِ أنّ رجلاً آخر يسكن بيتها؟

ظللتِ تُطلقين صرخات الألم ومسعودة لا تصدّقكِ، تتصوّركِ تتعلّلين بالمرض لتتهرّبي من الزيارة، امتحنتكِ بقرارها (بس يجي أبوكِ أخلّيه ياخذك للدختر)[1]. فزعتِ (لا.. لا). فأعلنتْ بمكرها (أجل ما فيكي إلاّ العافية). حلفتِ بصدق (والله الوجع يقطّع بطني). تنهّدتْ وهي تتّجه إلى الخزانة (ما تبين[2] الدختر أنا أداويكِ). حاست بين الأدراج وعادت تحمل الزجاجة (سأدهن بطنكِ بالـ (بوفاس)). رفعتْ فستانكِ المشجّر فبدا بطنكِ أمامها نحيلاً. تلمّسته، دهنته وهي تتذمر (اللّي يشوف بطنكِ يحسبكِ تجوعين).

كانت نحافتك الشديدة تقلقها، فتجبركِ على الأكل حتى يفيض من حلقكِ. شكتْكِ كثيرًا لأبيكِ، احتملها مرّات ثم

---

(١) الدختر: الطبيب.

(٢) تبين: تريدين.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

نصحها زافرًا (لا تتعبي نفسكِ معها، البنت عودها ضعيف مثل أمّها).

ظلّت مسعودة تدهنكِ وتُسمّي عليكِ. وتُلقِمكِ أمنيتها (إن شاء الله أدهنكِ يوم عرسكِ وولادتكِ، بسّ ما أدري شلون هالبطن بيشيل جاهل). فاجأها ردّكِ (يمكن ما أجيب عيال). شهقتْ. كشّتْ بيدها كمن تكشّ شيطانًا أو شرًا (أفال الله ولا فالكِ).

تابعتْ دهنكِ بلمساتها المترفّقة، تثرثر وأنتِ غائبة عنها في تذكّر حديثكِ ذلك اليوم مع أبيكِ الذي شتل ثمرة قلقه في عقلكِ، وبدورك أردتِ زرعها في قلب مسعودة.

كنتِ جالسة معه في الحوش، يقرأ لكِ القصيدة المقرّرة للامتحان وأنتِ تردّدينها لتحفظيها. ساقاكِ النحيلتان ممدودتان أمامكِ، بعض ذبابات صيفيّة لزجة تحطّ عليهما فتهزّين مشط القدمين لتتخلّصي منها. فجأة! توقّف صوته وطال صمته. التفتِّ إليه، رأيتِ نظراته مُسلّطة على أطراف قدميكِ، حسبْتِهِ منزعجًا من تحريكهما. قلتِ (الذبّان يؤذيني). كأنّه لم يسمعكِ. فصرختِ (يُبَهْ. اشفيك؟)[1]. التقط الكتاب وهو يهمهم (أصابعك متراكبة، أوّل مرّة أشوفها). ببراءة سألتِ (شنو يعني؟). هاربًا إلى الكتاب (ماكو شيء). لكنّك المدللة

---

(١) اشفيك: ما بك.

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

العنيدة لا تشفي غليلكِ الإجابات المنحرفة، أصررْتِ، نشفْتِ ريقه، ما استطاع كالعادة أن يقاوم عنادكِ أباح لكِ (كانت أصابع عمّتك الله يرحمها مثل أصابعكِ). قفزت صورة عمّتك سارة وهي متفحّمة أمامك، صوتكِ مرعوشًا على وشك البكاء (يعني سأموت محروقة مثلها؟).

هلع، حضن رأسك وسمّى عليك. سألتِه (أنتَ ليش خايف؟). صمت، وأنت تلحّين (قول.. قول.. إشفيها عمّتي؟). خرج صوته مترنّحًا (كانت عمّتك عاقرًا). شاغبتِهِ (يعني شنو عاقر؟). سحب نهدة وحرّك كفّيه أن لا حول ولا قوة إلاّ بالله وقال (يعني مسكينة ما جابت عيال). لم يهمّكِ حينها شأن عمّتك، لكنّ السنوات ستمرُّ وينفلش قلق أبيكِ.

وأنتِ غائبة في التذكّر كانت كفّ مسعودة تروح وتجيء على بطنكِ تمسّده وتؤكّد (ستطيبين إن شاء الله). لكنّكِ ظللتِ تتوجّعين. وجع في جسدكِ، وجع في روحكِ يتزاحمان ويُطلقان أوجاعًا أكثر، ووجع في رأسكِ يُشعله السؤال القادح (كيف سيكون لقاؤكِ بأمّكِ بعد كل تلك السنوات؟).

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

اللّقاء العاصف

حرصت مسعودة أن تكوني باهية وجميلة. ألبستكِ أحلى فساتينكِ ومصاغكِ، زيّنتْ جدائلكِ بالشرائط. دهنتْ حاجبيكِ الكثيفين وشفتيكِ بالفازلين، عطّرتكِ وجاءت (بالمبخر). أسقطت فوق جمراته أعواد البخور فتصاعد العبق، أمرتكِ أن تباعدي بين ساقيكِ لتبخّر بينهما ثم دارت به حولكِ تردّد سورة الفلق. أبوكِ في الحوش يستعجلكِ ومسعودة تتريّثه حتى تأكّدتْ أنّكِ في كمال صورتكِ. قبل أن تغادرا الغرفة عصرتكِ إليها وأوصتكِ (لا تضايقين أمّك. صيري زينه معاها). لن يغادركِ وجه مسعودة تلك اللّحظة، كان بسواده يشعّ ضياءً، وبكلّ حنانه يعتصر خوفًا عليكِ من الـ.. الذي ينتظركِ هناك. ارتميتِ عليها تغرّدين (يُمّهْ مسعودة أحبّك وايد.. وايد). قبّلتكِ فوق خدّكِ ثم مسحت مكان قبلتها تحسُّبًا أن تكون أتلفت بعض رائحتكِ، خرج صوتها دافقًا بالصدق (ستفرح فيك أمّك). طرقت الكلمة سمعكِ وسكون عقلكِ (ستفرح!! لماذا ستفرح؟). سألتِ مسعودة فذكّرتكِ (لأنّها أمّك).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

طحنت الكلمة برأسكِ. عواطفكِ الباردة لا تدرك معنى الكلمة، أصل الرابطة وعمقها، فلا صورة لحنان أمّكِ تؤجّج ذاكرتكِ. كل الصور تغيب إلاّ صورة الفراق الأخير و.. (خذها لا أريدها).

* * *

يوم خرجتِ من بيت أمّكِ ذلك اليوم العاصف ما شعرتِ بالمسافة طويلة كما هي وأنتِ ذاهبة إليها اليوم. هل ابتعد البيت أم قلبك هو الذي ابتعد؟ كان الثقل رازحًا على روحكِ وخوفك من اللحظة جعلك تهربين إلى مراقبة الشوارع. ها هي الدكاكين وبيت (أبو زويد) لكنّكِ لم ترينْ أمامه الحصان والعربة التي كنتِ تنحشرين فيها مع الأولاد والبنات أيّام الأعياد وهو يلفّ بكم في الشوارع، يأخذكم إلى الدوارف ثم يعيدكم بعد الأنس إلى بيوتكم. تذكّرتِ ورائحة بخّوركِ يسرّبها الهواء لأنفاسكِ رائحة مؤخّرة الحصان حين يهمزه أبو زويد بالسوط فيطلق ضرطاتٍ عالية لا تغيّبها أصواتكم وألحان أغانيكم الشعبيّة. سألتِ أباك (وين عربانة أبو زويد؟). ضحك وأدار كفّه بالهواء (ويه.. أبو زويد الله فتحها عليه، صار عنده وانيت)[1]. أبطأ القيادة وأشار لموقع قريب وضحك قبل أن يسألكِ (هل تذكرين أمّ السّبال؟)[2] قهقه صوتك (أذكر..

---

(١) وانيت: سيّارة بك أب.

(٢) السبال: الفول السوداني.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أذكر). قال أبوكِ وشبه حسرة في صوته (الله يسامحها.. ما يندرى إن كانت حيّة أو ميتة).

لم تنسيْ تلك الحادثة الطريفة يوم جرؤ أحد الصبيان ونزع عن وجه بائعة السبال برقعها فبان ثغرها الوسيع الأدرد. تركتْ سبالها الحارّ ولحقت به. أشفق أبوكِ على حلالها أراد أن يحرسه لكنّ الصبيان تكالبوا على الماعون. خطفوا السبال وهربوا. حين عادت المرأة ورأت ماعونها فارغًا إلاّ من القشور خبطت على صدرها واتّهمت أباكِ بأكله ولم ينقذه من سلاطة لسانها إلاّ تضاحُك الصبيان المختبئين خلف البراميل وثغورهم ممتلئة به. ذكريات بعيدة يستعيدها أبوكِ ليُسلّيكِ أو لعلّه يُسلّي نفسه. حين توقّف عند رأس العاير[1] خرج صوتك ثقيلاً (وصلنا). فرح أبوكِ. استدار إليكِ. التقط وجهكِ بين كفّيه. احتواكِ بنظرة دامعة (ما دمتِ عرفت البيت فأنتِ لم تنسيْ أمّك).

* * *

هو ذا باب أمّكِ... الباب الذي أُغلق بعد خروجكِ وعمركِ ستّ سنوات، سيُفتحُ الآن وعمركِ اثنتا عشرة سنة.

وقفتِ كمن يقف على طرف هوّة سحيقة. فإذا زُلزلتِ الأرض زلزالها ستقذفكِ إلى البيت الذي قذفكِ، وإلى الحضن

---

(١) العاير: الزقاق الضيّق.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الذي فارقتِهِ وصار حضنًا للغريب. بركان ينفجر وناره تتأهّب لالتهامكِ. (يا نار كوني بردًا... وسلامًا).

استشاط وجع بطنكِ. الرجفات تمادت وزحفت لكلّ أطرافكِ، لأسنانكِ، لقمّة رأسكِ حتى منابت الشعر. لصدركِ فاهتزّ عقدكِ المُتدلّي عليه، كل شيء فيكِ يهتزّ، سمعتِ خشيش أوراقكِ المبعثرة، ريحكِ نفختكِ إلى أبيكِ المُنتظر داخل السيّارة. خرج إليكِ، تعلّقتِ بتلابيبه، توسّلتِه أن يعود بكِ لكنّه قام بتوصيلكِ ثانية إلى الباب وفرّ إلى السيّارة وهذه المرّة لم ينتظر.

وحدكِ تواجهين الباب والمجهول. حرّكتِ ذراعكِ شبه المشلولة، أمسكتْ أصابعك بسقّاطة الباب الحديديّة قرعْتِها فصرخ الرّعب في داخلكِ.

دنتِ الساعة وانشقّ الباب.. برقَ برقٌ وفاح عطر دارسين وزنجبيل. هي أمّكِ. ما كدتِ تلتقطين طلّتها إلاّ وكان صدرها كالجنّة يشفطكِ إليه وصوتها يُمطر ويبلّل سمعكِ (لبنى! حبّة قلبي. مايْ عيني. وخاطر الله اشقدْ ولهانة عليك).

كنتِ في عاصفة دموعها، دهشتها، لهفتها وجنون فرحها مثل ريشة أو ذرّة غبار. أين كنتِ؟ في رحم حضنها؟ في قلب صدرها بين النهد والنهد؟ أين؟ لقد توّهتْكِ بمهرجان فرحها العجيب. كنتِ مُحاصرة مشدودة لوجد صدرها اللاهث،

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

منذورة لحضنها الواله، لصوتها المُندّى باسمكِ بين شهقات دموعها (لبنى. نظَرْ عيني. ريحة قلبي. وردتي).

عيناكِ بعيدتان عن وجهها وهي قابضة على وجهكِ بكفّين ناعمتين كالمخمل. خيارك كان أن تظلّي جاحدة للوجه المُحتفي بك، أو تفكّي أسْر عينيكِ لتبرّي وجه الأمّ المغمور بورد البساتين ورائحة الجنّة. هي بانتظار أن تهبيها ولو ذرّة من حُبّ كما تهبكِ. بانتظار أن تلتقطي وجهها وتتبعثري بدمعها بانتظار أن تصدحي بكلمة (ماما).

قلبكِ ينبض، وأنتِ غير قادرة أن تحدّدي سرّ النبض، الفرح أم الدّهشة؟ عطرها النفّاذ ينسرب إليكِ، تشمّينه وتصدّين عطر الأمّ الأكثر نفاذًا. كنتِ كأنّك تدخلين غيمة وتعومين بضبابها، ترتعشين من بردها. لهيب أمّكِ لم يستطع أن يسرّب الدفء إليكِ. كم كنتِ عنيدة وقاسية!. وجهكِ ما يزال بين كفّيها، أناملها تتحسّسه وكأنّها تتفقد شيئًا ثمينًا ضاع منها. رشّتكِ بقبلات تملّحتْ بدموعها. كانت قبلاتها غضّة وكانت وجنتاكِ رملاً وحصى. رويدًا، رويدًا، ذاب صمغ عينيكِ وحدّقتِ بوجهها. صوتها اقتحم دهشتك (عيني لبنى. شوفيني.. شوفي أمّك. تذكّرتيني والاّ بعد؟). سحر جمالها الـ.. ما يزال أذهلكِ. وكلّ الوجه الحنون يندهكِ أن تندفعي وتذيقيها لذّة القبلة الأولى بعد الفراق. أن تصدحي باسمها وتدعي لحظة الماضي تغرب عنكِ لتشرق لحظة الآن الجميل.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

تسمّرتِ في مكانكِ. كنت كمن حملتْ شموع طفولتها الأولى لتضيء المكان وترى ما تعتّم منه. رحمة الأمّ تتنزّل عليكِ خيرًا من ألفِ رحمة. قلبها الملاك يُدرك سرّكِ، شوقكِ لمرتع الطفولة. تفاجئين أنّها اخترقت أفكاركِ وصوتها (تعالي شوفي بيتك). رغبة راقدة في قلبكِ أن لا تتذكّري سوى العلقم. عيناكِ اللتان أغفلتا كلّ الجهات واتّكأتا على بقعة مُعيّنة حيث كانت أوجار نملكِ الذي صادقتِه. كانت فلوله تدبُّ على ساقيكِ وبين أصابعكِ. أمّكِ ضاقت بتلك الصداقة خاصّة عندما وجدته في جيوب ثيابكِ التي ترشّينها بالسكّر. حذّرتكِ، شكتكِ لأبيكِ فلم يُبال وردعها (خلّي البنت تستأنس). غضبتْ وقرّرت أن تنتقم من النمل، وكم كان انتقامها شديدًا.

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

حكاية النّمل

أذكر تلك الحادثة جيّدًا. كان الوقت ما بين العصر والمغرب. والشمس ما تزال سافرة بوهجها. أمّي في حجرة الجلوس تخيط لي فستانًا جديدًا. أنا عند أوجار النمل المتناثر باحثًا عن قوته. تسلّلتُ إلى المطبخ، فتّشتُ عن بقايا الخبز اليابس الذي تحتفظ به أمّي لتطبخه (محروق إصبع) سحبتُ قرصًا ورحتُ أفتّته له. جلستُ ومططتُ ساقيّ وحرارة الأرض تلسعني فلا أكترث. نادتني أمّي أكثر من مرّة لتقيس عليّ الفستان فتجاهلتُ نداءها. فجأة رأيتها تنتصبُ أمامي. صرختْ وهي ترى النمل يسري على ساقيّ، أخذت تُزيحه بعنف وهي تلعنه:

ـ (هالنمل ملعون الوالدين ماخذ عقلك. هسّه لازم يموت).

صارت تدوسه بكلّ غضبها. بعضه كان يموت وبعضه ينتشر في كلّ اتجاه هربًا من الموت. صرختُ أسترحمها أن تكفّ فابتعدت. حسبتها يئست ولن تعود، لكنّها أقبلت وزجاجة

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الكاز بين يديها. أخذت تصبّه فوق الأوجار. أمسكتُ بطرف فستانها أشدّها وأرجوها بدموعي:

ـ يُمّهْ لأ. الله يخلّيكي نملي سيختنق.

مسعودة ركضت. حارت بيني وبينها. هل تمسك بها أم تحتوي فزعي؟ أمّي لم تتوقّف حتى أفرغت كلّ الزجاجة. وبعصبيّتها شخطت أعواد الكبريت وقذفتها فوق الكاز فاشتعلت النار. جُنَّ قلبي. انفلتُّ من ذراعيْ مسعودة نحو الحريق. رأيت النمل يفرُّ ولا ينجو. سمعتُ هسيسه المؤلم. شاهدتُ ذويان أجساده الضعيفة. ذاب قلبي صرختُ بأمّي:

ـ سيحرقكِ الله بالنار. أنا لا أحبّكِ و...

سقطتِ على الأرض كما سقط نملي.

* * *

كرهتُ أمّي ذلك اليوم. شتمتها في سرّي وتمنّيتُ لو تحترق. وفي الليل هاجمني حلم مروّع. رأيت أمّي مُحاصرة بالنيران. تصرخ وتمدّ ذراعيها طالبة النجدة. كنت أقف بعيدة عنها والخوف لا يحرّكني حتى همدت النار وتكسّرت أنياب الدخان. رأيت جسدها مُتفحّمًا بلا تضاريس. وفي لحظة تجمّعتْ عليها فلولٌ من النمل بحجم الصراصير والفئران وأخذت تنهش بجثّتها وهي تطلق ضحكات غريبة. صرت أصرخ. أصرخ حتى فزعتُ من نومي مبلّلة بعرقي وبولي. هرع أبي يحتوي ذعري وأنا ما زلت أصرخ:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ أمّي أكلتها النار والنمل.

حاولتْ أمّي اختطافي من حضن أبي لكنّني رفضتها وتمسّكت بأبي الذي كان يؤنّبها:

ـ (شفتِ فعايلك في البنت؟).

داهمني الحلم ليالِيَ متعاقبة حتى كرهتُ النوم. وظللت حانقة على أمّي رغم كلّ محاولاتها لاسترضائي. رفضتُ كلّ لعبة جديدة. مزّقتُ الفستان الذي بسببه قتلتْ نملي. تربّصتُ بأشيائها، كسرتُ أقلام حُمرتها، سكبتُ زجاجات عطرها، ونتفتُ وردات شعرها المرصوصة في العلب. كانت تلملم بصمت ما أبعثره ووجهها غاضبٌ لكنّها لم تعاقبني ولو بنظرة.

بعد كلّ حلم أسأل مسعودة:

ـ متى سيفارقني هذا الحلم المرعب؟

تمسح على رأسي بحنان وتقول:

ـ (إذا صفا قلبكِ على أمّكِ وسامحتيها).

في تلك الليلة تسلّلتُ إلى حضن أمّي. لم تصدّق. شدّتني إلى صدرها وهمست:

ـ (عيني لبنى، ليش ما نمتِ؟ تعبانة؟).

فاجأتها بسؤالي:

ـ يُمّهْ ليش حرقتِ النمل؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ (عيني لبنى هالقد كنت خايفة عليكي).

ـ أنا زعلانة منك.

دمعت عيناها:

ـ (عيني لبنى.. هسّه ما تسامحين الماما؟).

تردّدتُ. احتضنتني فتخيّلتُ أنّني سمعتُ هسيس نمل يهامسني من داخل صدرها (سامحي أمّكِ). دعكتُ وجهي بصدرها وهمستُ لها بالسماح. منذ تلك الليلة فارقني الحلم.

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

اللّفحة الأولى

رائحة دخان وهمي كانت تهاجم أنفاسكِ. ضبابات داكنة تغيّب وجه أمّك لكنّها لا تذرو صوتها وهي تشدّكِ نحو الغرفة التي كانت ذات يوم غرفة أبيك. بالكاد زحفتْ قدماكِ، وقفتِ عند العتبة، تسمّرتِ وأنتِ تلمحين الغريب يتصدّر المكان. دفعتكِ أمّكِ برفق وصوتها مُغرّد وهي تقدّمكِ إليه بغرور الأمّ (هذي لبنى. شوف اشقد حلوة). لم ترفعي ناظريكِ، صوته امتطّ إليك خشنًا (هلاوْ عيني لبنى). تقدّمتْ بك أمّكِ إلى المطرح حيث يجلس. أرختْ جسدها بقربه وأجلستكِ إلى يمينها. أحاطت كتفيكِ بذراعيها. ضمّتكِ برقّةٍ وهي لا تصدّق. كرهتِ الحصار. جذبتِ نفسكِ بعيدًا. كان همّكِ أن تتأمّلي الغرفة التي كانت جنّة أمّكِ وأبيكِ. لم تعد الآن تلك الجنّة النشوانة ولا رائحتها العطريّة. لم يكن أبوكِ يدخّن السجائر والآن يغرقكِ الدخّان ويخنق أنفاسكِ. الجدران التي كانت بيضاء بلون قلبه صارت رماديّة داكنة. ليس هذا سرير أبيكِ ولا ألوان شراشفه التي يحبّها بلون البحر وتموّجات السماء. هي الآن حمراء بتطاريز سوداء. السجّادة هي الأخرى عاجقة

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بألوان فاقعة. بحثتِ عن الرفّ الذي ثبّته أبوكِ على الحائط قرب السرير ورصّ عليه الكتب فلم تجديه. صندوق جدّتكِ القديم الذي حرص أن يحتفظ به احتلّت مكانه طاولة ضخمة مستديرة ذات سيقان ثخينة بقواعد على شكل حوافر لحيوان غريب. وفوق الطاولة تتناثر أوراق (الجنجفة)[1]، باكيت سجائر، وصحن به بقايا (بيذان)[2].

كلّ شيء يحاصركِ بجحيمه، يقدح أوجاع بطنكِ. يزداد الألم، تكتمينه، لا تريدينه أن ينكشف لأمّكِ مُستكثرة عليها أن تشارككِ ألمكِ، وحريصة أن لا يعرف به الغريب.

الوقت يفريكِ.. هما يتحدّثان فلا تصطادين الكلمات. عقلكِ وقلبكِ خارج الدائرة التي تضيق وتضيق وأنتِ كعصفورة حبيسة في قفص لا تألف أرضه ولا تشتهي حبوبه. أمّكِ لم تنس وجودكِ، تلتفت نحوكِ كلّ لحظة تداعب وجهكِ البارد، تمسح على شعركِ، تسحب جديلتكِ وتُبدي دهشتها (ما شاء الله. شعركِ اشقد حلو). كانت بداخلها تتمنّى لو أنّها التي اعتنت به لكنّ الأمنية لا تصلكِ. حتى أسئلتها التي تأتيكِ تجيبين عليها باقتضاب وبصوت خفيض متعمّدة ألاّ يسمعكِ الغريب، لكنّها حين شهقت بالإعجاب وهي تتلمّس فستانكِ تعمّدتِ أن ترفعي صوتكِ برنّةٍ حادّة (أبوي اشتراه لي). وبحدّة

---

(١) الجنجفة: ورق الشدّة.

(٢) بيذان: اللوز الجافّ.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أكثر أجبتِ وهي تعابث أساورك الذهب (كلّها من أبوي. . . وهذا. . . وهذا. . .) وأشرتِ لعقدكِ وخواتمكِ وخلاخيلكِ. كنتِ باعتزاز تتحدّثين عن أبيكِ غير عابئة بمشاعر أمّكِ وحرجها من زوجها الذي تصبُّ مدائحكِ لأبيكِ في قعر سمعه. قطعتْ عليك أمّكِ إدرار الكلام (عيني لبنى شلون مسعودة؟ عساها تراعيكِ؟). هيّجكِ السؤال البريء واغتبَرْتِهِ تهمة ساخنة تمسُّ أمومة مسعودة أردتِ أن تثأري لها (أمّي مسعودة تحبّني وتداريني مثل عيونها). لم تُعجب الغريب إشارتكِ السامّة. أحنى بذراعه رأس أمّكِ الفاصل بينكما ومطّ وجهه الحانق إليكِ. قال وأطراف أصابعه تطرق على عظمة كتف أمّكِ (هذي أمّكِ. . مسعودة خادمتكِ، ومن قبل كانت خادمة لأمّكِ). أساءكِ تدخّله واحتقاره لمسعودة. قذفْتِهِ بكتلةِ نار لو تعرفين كم أحرقت قلب أمّكِ (أمّي ما ربّتني). نفث دخانه، زفر غيظه. تورّم حقدكِ عليه. ووجع بطنكِ يتمادى، شعرتِ باللبطات مثل كرةٍ ثقيلة تتنقّل ما بين المعدة والبلعوم وتثير الغثيان. كانت أمنيتكِ أن يأتي أبوكِ ويفرّ بكِ. أمّكِ لاحظت حالتكِ (عيني لبنى. . تعبانة؟) أسقطتِ رأسكِ ولم تردّي. حاولتْ أمّكِ وحين هزمها صمتكِ مدّت كفّين آه لو تذكرين دفئهما. كنتِ ترتعدين من البرودة حين سحبت كفّيكِ رغم عنادهما وخبّأتهما بين كفّيها (عيني لبنى ليش بردانة؟). صوت الغريب سبقكِ ساخرًا (يمكن جوعانة). تمنّيتِ لو سكبتِ غثيانكِ في وجهه، نطقتِ وكلماتكِ أمضى من السكّين (شبعانة من بيت أبوي).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

هبَّ واقفًا وغادر الغرفة مسرعًا. أمّكِ حاولت إغراءكِ (أروح أجيب لك رهش)[1]. تذكّري كيف انبهرتِ. لم تصدّقي أنّ أمكِ ما نسيت غرامك بالرّهش. قبل أن تتحرّك أمسكتِ بها (لا تروحين). كدتِ في لحظة أن تستسلمي لرغبةٍ داهمتكِ.

مُستغلّة غياب زوجها لتدفني رأسكِ في صدرها وتعودي تلك (اللبنى) طفلة الستّ سنوات لكن ما حدث بخّر الرغبة. رأيتِ الغريب يقف عند باب الغرفة تتدلّى دجاجة من يده الصّائحة على رجليها وبيده الأخرى تلتمع السكّين. باتّساع فمه قهقه بكلماته (هسّه أذبح لك الدجاجة وتطبخها أمّك). لم يمهلكِ أن ترفضي. كان قد داس على رجليّ الدجاجة وهي تُقَوقي مستنجدة، مطّ عنقها وحزّه فاندلقت نافورة الدم. أرعبكِ المشهد، أطلقتِ صرخة والتويتِ بوجهكِ على صدر أمّكِ دائخة مرتعشة. دفق شيءٌ دافئٌ إلى ساتركِ فحسبتِ أنّكِ تبوّلتِ على نفسكِ. ضمّمْتِ فخذيكِ كي لا يتسرّب السيل وتبدين كطفلة بلهاء فيشمت بكِ الغريب وقد يشير لأمّكِ أنّها إحدى عادات سيّئة تربّيتِ عليها. احتملتِ مصيبتكِ التي لا تدركين سرّها. الطنين يحاصر أذنيكِ لكنّه لا يحجب صوت أمّكِ وهي تؤنّب الغريب (ما تخاف ربّك، خوّفت البنت). احتجّ وهو يرتخي على المطرح (هذا جزاي إنّي فرحان بيها وأريد أذبح لها؟). أمّكِ سخرت منه (روح يابه، اللي يشوفك يقول ذابح

---

(١) رهش: حلوى بالطحينة.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لها جاموسة). في أذنكِ تحسّستِ حُنوّ دفاعها (عيني لبنى.. اسم الله عليك لا تخافين). شبابيك أذنيكِ التي أشرعها الدفاع التقطت حدّة صوتها نحو الغريب (قوم شيل دجاجتك). داعبكِ فرح وأمّكِ تطرده وتلملم أعطافكِ المتناثرة، ارتحتِ لمشاعرها وبخلتِ عليها بمشاعركِ. كانت تندفع إليكِ بقلب الأمّ الذي لا يطالب بثمن، لم تسأل عن سرّ جمودكِ واحتجاز عواطفكِ. لم تلحّ، لم تعاتب، ظلّت تسقيكِ من رضاب حنانها وهي تحدّثكِ عن حرقة فؤادها لفراقكِ، عن سفرها إلى بغداد، عن موت جدّتكِ بثينة، وعن كلام الناس (قطّعوا لحمي بظنونهم قلت لازم أتجوّز وأنستر).

عاد الغريب يمسح ذراعيه المبلّلتين، كاشر الوجه وصوته (ها لبنى عيني، راح الخوف؟).

اتّخذ مكانه قرب أمّكِ. أشعل سيجارة نفث دخانها الكثيف بشبه زفرة والمكان يتعبق بالدخان.

* * *

أذان المغرب...

أزفتْ ساعة الفرج. أبوكِ وعدكِ أن يأتي بعد الصلاة. تهلّلتْ روحكِ، تهيّأتِ لتقومي. أمّكِ تمسّكتْ بكِ. قاومْتِها بقراركِ (أنطر أبوي عند الباب). عَبرَ حزن شفيف على وجهها. ابتسمتْ مرغمة وفاح صوتها بحزن أكبر (يا ليتك تشتاقين لي مثل ما تشتاقين له). قبل أن تجتازي عتبة باب الغرفة دفعكِ

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

خاطر أن تلتفتي نحو الغريب، لمحتِهِ ماطًا ذراعه وكفّه تتحسّس مكان جلوسكِ، خطر ببالك أنّه يُسوّي المطرح.

تمشّتْ بكِ أمّك في الحوش. حنان المغرب لا يطغى على حنانها الذي لا تُحسّينه. اتّجهتْ بكِ إلى شجرة الرمّان، قطفت اثنتين.. ثلاثًا. عشرًا. سحبتْ كيسًا معلّقًا بالشجرة أسقطتْ فيه ما جمعته وقدّمته لكِ (أعطِي أبوك ومسعودة والباقي كلّه لك).

عيناكِ تستقرّان على مكان الأوجار. تذكّرتِ الحلم ونيرانه، شعرتِ أنّها تحاصركِ، هربتِ إلى الباب، التصقتِ به وأمّك تلصقكِ بها أكثر. مشاعركِ كلّها بانتظار الرحمة.

رنّتْ الطرقة على الباب. فتحته أمّكِ، توارت خلفه، قبل أن تخطفي خطوتكِ وتخرجي خطفتكِ إلى صدرها، غمرتكِ بالقبلات وروحكِ لا تفكُّ مصاريعها لتعرف عجين عذابها وحزنها وهي تودّعكِ. عطر أمنيتها يسيل من لسانها (عيني لبنى زوريني دايمًا).

أشرعتْ الباب فهبّت النسمات. انطلقتِ من أسْركِ إلى الحرّيّة. خرجتِ أرنبة مثقلة بألمكِ، مُشوّشة بسرّ السائل الدّبق. وجهكِ المفروش بالحيرة أرعد قلب أبوكِ، تصوّركِ حزينة لفراق أمّكِ أو غاضبة من تصرّف أو كلمة جرحتكِ من زوجها. حفّزكِ على الكلام (ها.. إن شاء الله استأنستِ بأمّك؟). صمتكِ غلبكِ وتلهّفه يستحثّكِ وأنتما تقطعان الزقاق إلى موقف

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

السيّارة (ما بكِ؟ زعلانة أو تعبانة؟). تردّدتِ قبل أن تقولي (بطني يُعوّرني). فتح كيس الرّمان وسألكِ (هل أكثرتِ منه؟) أجبتِ (لم آكل شيئًا). وسبقتِهِ بخطوكِ. ركض وراءكِ، أوقفكِ، خلع غترته، فردها وعقد طرفيها حول خصركِ. فوجئتِ لكنّه لم يشفِ غليل تساؤلٍ طفح من عينيكِ. كان وجهه مبتسمًا رغم خطوط القلق. فتح باب السيّارة، أولجكِ بلطفٍ وتحرّك سريعًا والمساء يرخي جدائله الحنونة.

حين ترجّلتما من السيّارة حرص أن يكون خلفكِ، كفّاه تضغطان على كتفيكِ، يدفعكِ نحو باب البيت مثل أعمى يستند على عكّاز ويتعجّل الدخول حيث لا عيون تبصر عماه وتُبصركِ. استقبلكِ وجه مسعودة سعيدًا. سلّمكِ إليها أبوكِ كمن يُسلّم أمانة وصوته الحنون لا يخلو من بهجة (البنت كبرت يا مسعودة.. تدبّري أمرها).

زغردتْ مسعودة ولا تدرين ما الذي دفعها إلى ذلك. في الغرفة فكّت عقدة الغترة فانفردتْ أمامك. عيناكِ شاهقتان (دم.. من وين الدم؟ شنو فيني؟). حُضْتِ، ولُضْتِ، بكيتِ ومسعودة تحاول أن تحتوي فزعكِ (لا تخافين. هذا شيّ زين.. تعالي). أخذتكِ إلى الحمام وصراخكِ يتواصل فنهرتكِ (بس. صيري عاقلة. ألحين صرتِ مَرَه)[1]. أحزنكِ تعنيفها. سحبتِ كفّكِ الذي تشدّ عليه وركضتِ نحو الباب قاصدة أن

---

(١) مرة: حين تبلغ البنات يطلق عليهنّ لقب امرأة.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

تفرّي إلى أبيكِ لكنّها اصطادتكِ وبعينين لا تخلوان من عتب (عيب. لا تطلعين، هدومك كلّها دم). عادت بكِ إلى الحمّام وغسلتكِ. وقبل أن ترتدي ساترك كانت تأتيك بفوطة أمرتكِ أن تدسّيها به فاستسلمتِ لأمرها وصوتها الضاحك ينبئكِ (أحمد لله اللّي بلّغني فيك، إن شاء الله يبلّغني فيك عروس).

حدث جديد يطرق أبواب حياتكِ وتعليمات جديدة ترصّها مسعودة إليكِ. شعرتِ برائحة غريبة ينفثها كل جسدكِ. يدك تنحشر في صدركِ، تتحسّسين تورّمَ ثدييكِ وتعابثين شعيرات إبطيكِ النائتة كعشب نديٍّ ناعم.

* * *

لم تنامي تلك الليلة. تضافرَ أمران قاسيان عليكِ غيّرا أحوال لياليكِ المُعتادة. حدث البلوغ الذي فجّر دمكِ وعرف به أبوكِ والغريب الذي تحسّس مكان جلوسكِ. وحدث لقائِكِ بأمّكِ كان الشاغل الأكبر. تعاركتْ الأحاسيس بداخلكِ، مرّة تهزّكِ أنامل الحنان ومرّة تنهشكِ مخالب الحيرة. لم تكوني قادرة على تحديد مشاعركِ نحوها، تُشعلين جمرات الشكّ وتحترقين فيها وحدكِ. مسعودة المتلهّفة لمعرفة أخبار الزيارة شرختِ لهفتها (لا تسألينى عنها).

نهرتْكِ وصوتها مقهور (عيب عليك.. هذي أمّك). حدّقتِ بها ووجّهتِ التهمة قاصدة إثارتها ضدّ أمّكِ (شوفي شنو صار فيني من أوّل زيارة لها). بعكسكِ كانت مسعودة التي قالت

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وهي سعيدة (إنّها بشارة الخير التي هلّت في بيت أمّك ليتها عرفت لتفرح). برطمْتِ بالكلمات (أكيد عرفت). بُحتِ لها بما فعله الغريب فور قيامكِ من المكان. لم تُخْفِ مسعودة ارتياحها. باشرت تلاحقكِ بأسئلتها المتسارعة (سولفي لي عنها كيف حالها؟ بعدها حلوة مثل أوّل؟ هل فرحتْ بكِ؟ هل لمّتكِ[1] وحبّتكِ[2]؟).

ثرثر لسانكِ، تحدّثتِ عن شهقاتها، دموعها وفرحها و... قاطعتكِ مسعودة (وأنتِ؟ ما فرحتِ فيها؟). تلجلجتِ بالرّد ثم (ما أدري. كنت مقهورة من زوجها). زفرتْ مسعودة وهشّت بيدها كمن تهشّ شرّهُ (ما علينا من زوجها خلّيه يُولّي. سولفي عنها). أكملتِ (طلبتْ أن أزورها دائمًا). شقّ البِشر وجه مسعودة، ملوّنًا بأملها (أكيد بتزورينها. هذي أمّك حلوةَ اللّبن). وجه الغريب انتصب أمامكِ يكسر أملها.

ارتياحكِ لحنان أمّك الذي ضخّته لم يُغيّب الواقع المرّ الذي صبَّ كل مرارته على ليلكِ. أمّكِ الآن ليست لكِ، فبعد أن باعد الفراق بينكما ها هو الغريب يباعدكما أكثر، هو القريب منها وهي له بكلّها. وأنتِ لكِ الحقّ في زيارتها مرّتين في الشهر قرّرهما أبوكِ ولم تمانعي.

* * *

---

(١) لمّتك: احتضنتك.

(٢) حبّتك: قبّلتك.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ظللتِ لشهور تتمزّقين بعد كل زيارة، كنتِ ترتاحين لرؤية أمّكِ رغم عواطفكِ المتكلّسة، وتنفرين من وجه الغريب وصوته. أردتِ أن تقطعي دابر عذابكِ فنسجتِ وسيلة للتهرّب من الزيارة. لبط لسانكِ بقرار أكبر من سنواتكِ وأنت تواجهين المسكين الحائر ـ أباك ـ (ما أبي أزور أمّي). عفس وجهه وقبل أن ينبس كان التحدّي يقفز من صوتكِ (إن كانت تحبّ تشوفني هي تجيني). أوقعتِ أباك في مأزق. نبّهكِ قبل أن يعرف سرَّ قراركِ (يمكن زوجها ما يرضى تدخل بيتي). تشبّثتِ برأيكِ (كيفه. يقبل أو لا يقبل أنا لن أروح). سألكِ (هل آذاكِ زوجها أو أهانكِ؟). ألحّ وفي نفسه خشية أن يكون قد فعل. فجاء ردّكِ كمن تبصق دمًا متخثّرًا (ما أحبّ أشوف زوجها) غضب أبوكِ (تحبّينه أو ما تحبّينه أنت رايحة لأمّك). اعترضتِ (ما يخلّيني أقعد مع أمّي يظلّ لاصق فيها ويتدخّل بالكلام). أشفق عليكِ أبوكِ وقال متودّدًا (ميخالف يا لبنى تحمّلي علشان خاطر أمّك).

تحمّلتِ. ليس لأجل خاطر أمّكِ بل رحمة بفؤاد أبيكِ الذي توسّلكِ. لكنّك بعد شهور ضقتِ باحتمالكِ وواجهتِ أباكِ برفضكِ القاطع للزيارة.

تحقّق لكِ ما أردتِ. انعكس الأمر الآن. أمّكِ تزوركِ مرّتين في الشهر. تحمل هداياها والفساتين التي تخيطها لكِ. تحمل عاطفتها المرشوشة بالدفء وتدقّ بابكِ. وأنتِ يا لبنى تُغلّفين عواطفكِ. كنتِ تفرحين ولا تصرّحين، استكثرتِ على أمّكِ

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

كلمات الحبّ والامتنان. لم تحاولي رفْوَ ثقوب الهجران ولملمة فتاتها لتقتربي أكثر. ما كان يُضيركِ لو استجمعْتِ رذاذ الحبّ من جديد ونهلتِ منه ليعوّضكِ سنوات الجدب والحرمان؟ لكنّكِ وحين شعرتِ تعلّقها الشديد بكِ أردتِ بقسوة أن تقصفي عمر العلاقة. وُلِدتْ في داخلكِ مشاعر غريبة وعنيفة لتحطّمي قلبها وكأنّكِ تريدين الانتقام من صرختها الماضية (خذها لا أريدها). طلبتِ من أبيكِ أن تتوقّف زياراتها لكِ. وأبوكِ الحائر بأمركِ لم يكظم غيظه، قال محتجًّا (هذي أمّك مو طارش[1] روح وتعال). رفض قراركِ الظالم وقال متحسّرًا (جزا الوالدين على الله، باكر تصيرين أمّ وتعرفين قدر أمّك).

ما كان أقساكِ يا لبنى! كيف لم تتعلّمي من أمّكِ معنى الأمومة ومجدها؟ أيّ ضلالة ساقتكِ لتفتّتي رقائق قلبها؟

* * *

(١) طارش: مرسال.

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

ذكريات قاسية

رفضتُ أن أزورها لأنّ تلك الزيارات تعذّبني. كنت أحتمل رؤية البيت الذي فرغ من طيف أبي لكنّني لم أحتمل هبوب الذكريات الأليمة وهي ترشقني بحصاها. كنت أحاول إزاحة الصور القاتمة وأسْعَدُ بأمّي، أترنّم بتغاريد حنانها، لكنّ الماضي كالذباب الدبق لا ينزاح طنينه. وهناك قساوات أخرى صدرت عن أمّي غير حادثة النمل.

كنتُ في زياراتي أستحضر صورتها وهي جالسة إلى الماكينة تخيط وتغنّي. كان لها صوت جميل خاصّة في تلك الأغنية الحزينة. كنت أحبّه، لكنّني حين أستعيده أتذكّر فعلتها الشرسة يوم التقطتُ قصاصة قماش من الذي كانت تخيطه وقصصتها صدريّة للعبتي فكان عقابها عضّة قويّة، ولولا مسعودة لكانت قضمت لحمة من زندي. ظلّت أمّي تواصل عملها بينما مسعودة ترطّب جرح زندي وروحي المتألّمة. أبي حين رأى أثر جريمتها القرمزي لعن الفستان والماكينة وهدّد بكسرها.

ذبابة ماض أخرى تزوع دبقها فأذكر يوم اكتشفتْ أمّي أنّني

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

تبوّلتُ في فراشي. كان هذا يحدث مرّات، لكن مسعودة تتستّر عليّ. طار صواب أمّي وقرصت بإصبعيها جبهة عورتي. ويوم دُسْتُ على نباتات الكرفس والفجل، لشّطتْ قدميّ بالعصا حتى تورّمتا. حوادث كثيرة أخرى متناثرة في أرجاء البيت كانت تستفيق كلّما زرتها. كنت أتعذّب وعذابي يجعلني لا أتذكّر حُبّها بالقدر الذي أتذكّر قساوة عقابها. ليست الذكريات المُرّة وحدها التي تؤلمني. كان وجود زوجها بيننا أشبه بفكوك الجحيم المتأهّب لشفطي بعيدًا عن أمّي فلا أشعر بالأمان. كان يفرض أسيجته الشوكيّة حولنا وعيناه تراقبان وأذناه تتلصّصان. يلتصق بأمّي كمن يخشى أن تفلت منه وتختارني. حتى تصرّفاته معها كانت تُلقمني حقده وكأنّه يتصوّرني أبي الذي سبقه وقطف زهرة شبابها. فيلجأ لإثارة غيرتي، يتفنّن بأفعاله؛ يشدّ شعرها، يقرص زندها، يلكز مقعدتها بلا خجل، ينثال على عنقها المرْمريّ ويُقبّلها بطريقة تثير تقزّزي. كانت أمّي أحيانًا تصدّه بدلع فيمازحها مُتصنّعًا الأدب وهو يُشير نحوي ويدلق عجين صوته الرّخو:

ـ (أدري عيني ما تريدين لبنى تشوف).

لكنّها في أحيان أخرى تتجاوب معه. تبادله الغزل دون رحمة بمشاعري. كنت أحسّ روحي تضمر حتى لأكاد أتحوّل دمعة وأتلاشى في التراب. كان حقدي يصطخب في داخلي. فذلك التناغم بينهما لم تكن صورة مثله منسوجة في ذاكرتي

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بينها وبين أبي. كنت لا أذكر إلاّ زمهرير الشجارات في غرفتهما الملاصقة لغرفتي. تبدأ بالهمهمات ثم يعلو الصوت، يتبادلان السّباب فأشعر بالشرر يشقّ الحائط ويحرقني. كان صوت أمّي دائمًا هو الأقوى والأعلى وحين يشتدّ العراك أسمع صوت ارتطامات فأتصوّر أنّهما يتصافعان. حين يصل بي التصوّر هذا الحدّ أرتعش وأتبوّل على نفسي.

قادرة الآن، وتلك الذكريات تواصل هبوبها السّموميّ، أن أصف شعوري في ليالي الفزع. كنت أحسّني كمن ينام على فراش من ماء يترجرج بي، يقلبني يمنة ويسرة ثم ينشقّ من تحتي يتسرّب منه الماء فأسقط في هوّة تتراشق فيها جمرات تلك الكلمة التي تردّدها أمّي في كل شجار (طلّقني). سألت مسعودة عن معنى الكلمة فتجاهلتني لكنّها لم تنجُ من إلحاحي، ففهمتُ أنّ الطلاق يعني الفراق بين أمّي وأبي. صارت الكلمة الرأس المسنون الذي ينفلت من لسانها لينغرز في قلبي وكل جسدي. كان البيت يتصدّع وأمّي هي من تمسك بالفأس لتدكّ أساساته وحجارته التي تتراكم عليّ وتكاد أن تدفنني وأنا حيّة.

تلك الأحداث توشّمتْ في ذاكرتي مثل رؤوس الدمامل يزكمني صديدها وأنا في بيتها. فكان لا بدّ من نحر أعناق العذاب حتى لا أكون تلك الدجاجة التي نحرها زوجها وتركها تُفرفر. خفت على روحي، أردت إغلاق باب الموت الـ.. يترصّدني. طلبتُ أن تأتي هي فأرتاح من زفرات الذكرى ومن

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وجه الغريب. وحين وافقتْ أمّي أن تزورني فرحتُ. شعرتُ أنّني انتصرتُ على الغريب وأنّ أمّي انتصرت لحقّي في حنانها ولا أدري كيف أقنعته! هل بالتوسّل والاستعطاف أم بصرخة تهدّده فيها بطلب الطلاق.

تكرّرت زيارات أمّي. لكن حضورها لم يحقّق ليَ الراحة التي أملْتُ بها. فقد كنت أتألّم لأبي الملزم بمغادرة البيت قبل حضورها ـ ولا أدري إن كان زوجها الخبيث اشترط ذلك أم أنّها رغبة أبي ليفسح المجال لنا كي نتقارب ونغزل نسيج علاقتنا المُمزّق؟ كان يوصيني ويستحلفني أن أكون لطيفة معها. ولا أنكر أنّني تحسّستُ في داخلي ولادة شعور ناعم فتحتُ له القنوات ليسري ويسقيني. لكن ألمي من أجل أبي كان مثل حجارة تنتأ في وجه السّريان. ليس خروجه وحده الذي يزعجني بل كان الذي يحدث بعد خروج أمّي يوقعني في الحيرة. كان يندفع إليّ بشوق عجيب يشدّني إلى صدره، يتشمّمني، يتلمّسني كمن يتأكّد أن لا شيء نقص منّي. يبدأ يسألني عنها ليعرف كلّ شيء. وما كنت أفهم سرّ أسئلته ولهفته. بثثتُ حيرتي لمسعودة فبكت والكلمات الطافحة بالحسرة تهرول من لسانها:

ـ (مسكين.. يشمّ ريحتها فيكِ. بعده يحبّها وما نساها. الله يصبّر قلبه).

تألّمتُ لأبي، فمجيء أمّي ينكش حنينه ويفجّر سكون

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

عاطفته. هذا الإحساس دفعني أن أقطع الشريان الذي يضخّني بالغيظ على أمّي وأصدّ هجمة الماضي التي تُفتّق جراحات أبي. لهذا طلبتُ من أبي أن تتوقّف أمّي عن زيارتي، لكنّه رفض وآزرته مسعودة.

* * *

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

نوايا مهزومة

آزرتْ مسعودة موقف أبيكِ. حزنتِ وتمنّيتِ لو يتسلّل إلى قلبكِ ليعرف أنّكِ تعافين أمّكِ لتُجنّبيه ألمًا لا يفصح عنه. عنادكِ لا يترك لليأس قناة إلاّ ويشقّها. زرعتِ الفكرة وتحدّيتِ مسعودة (أنا سأقول لها). تصوّرتِ أنّكِ قادرة على مواجهة أمّكِ. كنتِ قبل حضورها تُهيّئين نفسكِ، تدرّبينها، تتوقّعين ردّة فعلها وعلى أساسها تجهّزين ردّكِ وحجّتكِ متأهّبة للّحظة الحاسمة.

وأمّكِ تجيء مُلوّنة بالفرح بريئة من نواياكِ المحبوكة، حين تصافحين وجهها المتورّد تتحوّلين قطّة. تندفنين في صدرها حيث ينساب إليكِ غدير الحبّ حتى من فرجات أصابعها الكامشة على ذراعيكِ. يذوب جليدكِ في صفاء بحيراتها، يتراخى عنادكِ وينفضُّ ثقل القرار. مسعودة الرّازحة بين صخور الخوف وشوك التوقّع ترتاح. تبتلع ريق العافية والرّضا، تشمتُ في سرّها بانهزامكِ.

ظللتِ تحاولين. وحين تكرّر فشلكِ استسلمتِ. لم يكن

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

يأسكِ الذي هزمكِ. كنتِ يا لبنى دون وعي تنسربين إلى أمّكِ مشدودة بحنانها وكانت بملمس الفراشة تفتح ستائر قلبكِ الملبّدة لتعرف رقّة النسيم الذي يلاعبها، والشمس التي تدفّئها، والسّكر الذي يتناثر حولها فيتجمّع نمل الحبّ يدغدغكِ، يمنحك اللّذّة التي ما أحسَسْتِها يوم كنتِ عندها. تلاشت نواياكِ ضدّها، هي أمّكِ الآن.. الأمّ التي لم تعرفي بعد سرّ أسرارها ولا عظمة التكوين الأولى في جوفها، الأمّ التي أوصتْ بها السماء والأديان والرسل. مَنْ إذا تدحرج القلب فوق تراب قدميها تبرّأ من الإثم. مسعودة التي ارتاحت لعودة مياهكما قالت (شفتِ يا لبنى أنت تحبّين أمّك وما تقدرين تكسرين قلبها وخاطرها). وافقْتِها لكنّكِ قلتِ بأسى (بس يا ليتها ما تزوّجت). زفرت مسعودة غضّتها (أمّك معذورة الناس يا بنتي ما ترحم). قلتِ (وأبوي.. ليش ما تزوّج؟). ضاقت بسؤالكِ وقالت (ما أدري.. إسأليه). وما تصوّرتْ أنكِ ستجرئين.

أثناء وجبة العشاء داهمتِ أباكِ بالسؤال فجمدتْ اللّقمة في حلقه. تحوّلتْ حجرًا غالب ليزدردها، لم ترحمي غضّته، واصلتِ (مثلما هي تزوّجت أنت لازم تتزوّج). نفض يده عن الطعام وغادر إلى غرفته وأغلق بابها دون عنف. مسعودة استشاطت (يالّلي ما تستحين أكو بنت عاقلة تطلب زوجة أب؟). تذكّري الآن تلك الليلة، تذكّري كيف أرَقْتِ، توجّعتِ، اعتكرْتِ بالدموع وبالآهات، احتجتِ لأكثر من عشرة أصابع لتعضّيها ندمًا وأنتِ تتخيّلين أباكِ يغالب شهيق دموعه، يتقلّب على مواقد

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

النار وقد أغلقتْ مزاليج الضوء والراحة أبوابها وليس سوى قفّازات الشوك التي أشرعتِها في وجهه.

لم تنامي...

من أين يأتيكِ النوم؟ كيف لأنفاسكِ الـ.. مذاقها أسود والـ.. رائحتها آسنة أن تهدأ وتنام؟ مسعودة قلقتْ معكِ، توجّعتْ من نشيجك وأشربتكِ حنانها (لا تبكين.. أبوك ما يزعل منك). كنتِ واثقة. فهو من نذر عمره لكِ. درّب أيّامه ولياليه على الصبر والحرمان، فلا ظلّ امرأة ولا جنّة وَصْل يولج إليها رذاذ الشوق وماء العافية. وهبكِ الرّوح، وصوم الجسد وظلال السنين. فكيف بعد أن ملأكِ بالحبّ وكساكِ بالأمان، تفتحين له بابًا لا يحمل سوى الشتات؟

في اليوم التالي طلب أن توافيه إلى غرفته. شعرتِ بارتعاد. تسمّرتِ عند بابها الموارب ثم دفعتِهِ بكفّكِ المتردّدة. صوته بحنان يدعوكِ إلى الدخول. طلب أن تجلسي قربه على السرير. جسدكِ مرتعش ووجهكِ الباهت منخفضٌ بخجله. رفعه إليه فرأيتِ وجهه مترقرقًا بحنوٍّ ساحر. بادرك (عيونك وارمة. يمكن ما نمتِ زين البارحة). اندفعتِ إلى صدره، فككتِ أربطة دموعكِ، مسحها وسؤاله (صحيح تريدين أن أتزوّج؟) من بين نشيجك (أمّي تزوّجت). مثل قطرات دمع حزين صبَّ صوته في سمعكِ (هل تدرين ما معنى أن تتزوّج أمّك ويتزوّج أبوك؟) لم ينتظر منكِ ردًّا. استطرد (يعني أكون أنا وهي ملك الغرباء

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وتصيرين أنت الغريبة). أوشكت أن تقولي شيئًا لكن كفّه غطّت شفتيكِ وأكمل (أمّك شابّة وحلوة وما يجوز تبقى وحيدة) أطلقتِ ردّك كالتنهيدة (أنت يا يُبَهْ بقيت وحيد). شهق صوته (أنا عمري ما حسّيت أنّي وحيد لأنّك تارسة عليّ البيت). التصقتِ به أكثر، ضغطكِ إلى قلبه، وصوته يُدفئك بحلمه (باكر تتزوّجين وتترسين عليّ البيت بعيالك).

* * *

فكرة الزواج كانت ترعبني لأنّ دعاء أبي الدائم الذي يردّده بعد كل صلاة (يا ربّ لا تأخذ عمري قبل أن أزوّج لبنى) يثير مخاوفَ تتقرفص بقلبي. لم يكن الدعاء يلوّح براية العرس وثوب الزفاف. كنت أحسّه كوميض سيفٍ أسود يتّجه إلى عنق أبي، فقد اتّحدتْ فكرة زواجي بموته. صارحت أمّي بتصوّري الذي يقلقني. فخفضت عينيها بخشوع وقرأتْ بهدوء:

ـ (وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله كتابًا مؤجّلاً).

ساءني استسلامها، قلت وصوتي غير مستقرّ:

ـ لا أريد أن يموت أبي.

بذات الهدوء قالت:

ـ الموت في رقاب العباد. كلّنا سنموت.

استفزّتني أمّي. شعرتها لا تأبه إن عاش أبي أو مات. زعقتُ:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ من لي غير أبي لو مات؟

ما خطر ببالي حينها أنّني أصوّب سهمًا لاذعًا لقلب الأمّ لكنّها ابتلعته وذكّرتني:

ـ لكِ أمٌّ تحبّك أكثر ممّا تحبّينها.

أدركتُ أنّ أمّي تسبر غوري. كنت أتصوّر أنّ واحدة من هبات الله علينا أن لا أحد يدرك دواخلنا. وأنّ خفايانا لا ترتسم على وجوهنا فتُقرَأ، ولا تلتمع بنظراتنا فتُحَسّ، لكنّها ـ الأمّ ـ وحدها الملاك الذي تَشِفّ له كل الأشياء، القدّيسة التي لا تحتاج أن تحرث تربة روحنا ولا تُقلّع صخرها لتعرف نوايانا، قلبها وحده (جهاز الضغط) الذي يقيس ولا يخطئ، والأنامل التي حين تضغط على الرسغ تعرف عدد الدقّات وشموليّة أحاسيسها. كانت أمّي تعرف حيّز عاطفتي غير المكتملة نحوها. لا تلومني، لا ترشّني بنافورة الدم، لا تردّ الإساءة ولا تنتقم لعاطفة الأمّ المطعونة. أشفقتُ عليها. أردتُ أن أمنحها العرفان، حضنت كفّها، تهاطلتُ عليها أقبّلها:

ـ سامحيني.. تعرفين كم أحبّ أبي.

تهدّج صوتها وهي تسرّب سؤالها:

ـ يمكن أن أموت أنا قبله. هل ستحزنين عليّ؟

ارتعشتْ كلّ أطرافي. فتحتْ أجنحة الموت كلّ أكمامها لتشفط كل من أحبّهم، لا أريد الموت لأبي ولا لأمّي.. ولا لمسعودة.. ولا لماري صديقتي الوحيدة.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لا أستطيع إقصاء الموت عن تفكيري، ولا مداهمة الأسئلة: (ما هو؟ ما شكله؟ يقولون عنه رحمة وأسمّيه الضربة الغامضة المتربّصة بنا في المكان والزمان. لماذا حين خلق الله الحياة الجميلة خلق الموت القبيح؟ لماذا يخلق البشر ثم يخطف أرواحهم؟ إن كانت الروح هديّته المقدّسة إلينا فلماذا يستردُّ هداياه؟).

سطوة الموت تلاحقني. أشعره يتخبّأ وراء دعاء أبي المتكرّر لينقضَّ عليه ما إن أتزوّج. كيف أحميه وأمنحه مزيدًا من السنوات ليمنحني مزيدًا من الحبّ والسعادة؟

ـ لن أتزوّج.

أعلنتها له صارمة فابتسم ابتسامة التوسّل:

ـ أريد أن أرى أولادك وأفرح.

ذكّرته:

ـ يمكن أكون عاقرًا مثل عمّتي.

ران عليه صمتٌ غير طويل ثم نظر إليّ بثقة:

ـ إن شاء الله لن تكوني عاقرًا، وستنجبين.

* * *

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

ماري

لكمْ تمنّيتُ ألاّ أتزوّج، لكن إلحاحه وحلمه يشُبّان في قلبه كلّما شبّبْتُ أمامه. كان يتأمّلني ويشهق:

ـ ما شاء الله.. كبرت يا لبنى.

كان هذا الكِبَرُ يعني أن أترك المدرسة وكانت فجيعتي التي لم أصدّقها:

ـ ليش يا بُنَيّة؟!

قال برقّةٍ وكأنّ الأمر مفروغٌ منه:

ـ أخذتِ من المدرسة ما يكفي.. البنت سترها في بيتها.

قلت بتوسّل:

ـ ماذا أفعل بالبيت؟

أبي الذي تحسّسَ موهبتي وعشقي للقراءة والكتابة احتضن رأسي وقال بفخر:

ـ أنتِ منذورة للأدب. سأحضر لكِ مزيدًا من الكتب، ستقرأين وتكتبين ولن تشعري بالفراغ.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لم يخلف أبي وعده. أغرقني بكل أنواع الكتب. وليسترضيني أكثر حمل إليّ ذات يوم ماكينة خياطة وضعها أمامي مبتسمًا:

ـ أريد أن تكوني ماهرة مثل أمّك. وستعلّمك في زياراتها لك كلّ فنونها.

* * *

كنتُ قد تعلّقتُ بالمدرسة، بمعلّماتي، بالموسيقى، بالشعر وبالكتابة، بماري التي تعمّقت علاقتي بها دون كلّ الزميلات. كانت ذكيّة، ممتلئة بالحيويّة وجمالها يثير الدهشة. وجه أبيض مستدير ينتهي بذقن صغير مدبّب، عينان خضراوان برموش كثّة ملتوية تصل حدود الحاجبين، شفة ممتلئة كما الفستقة، ما يميّزها ذلك الأنف المعقوف قليلاً إلى أعلى فيبدو وكأنّه منقار عصفور، كانت تفخر به وتقول (منخاري بيسبّح الرّب). بعد الهجرة من فلسطين عام ٤٨ لجأوا إلى الأردن، وبعد سنوات انتقلوا إلى الكويت. عمل أبوها مفتّشًا في وزارة المعارف، أمّها رغم الشهادة التي تحملها لم تعمل لأنّها تفرّغت لابنها الذي وُلِدَ (منغوليًا). كانت تحرص على بقائه في البيت لكنّه أحيانًا يغافلها ويخرج إلى الشارع فيتناوب عليه الصبيان بالسخرية من مشيته ولسانه المُتدلّي فوق شفته السفلى ولعابه الذي يسيل.

تصادقتُ وماري، وتلازمنا في المقعد الأمامي، كنّا أشطر

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بنات الفصل، نتنافس ونتناوب على المركز الأوّل ممّا كان يثير غيرة الزميلات. امتدّت الصداقة بيننا إلى حدود بيتنا وبيتهم.

ذات يوم سقطت من كتابها صورة التقطتها وتأمّلتها. كانت لشابّ أخضر العينين، شعره الأشقر يسترسل على كتفيه. خفق قلبي له (يالملعونة يا ماري تحبّين وتخفين سرّك عنّي). أردتُ أن أحرقصها فأخفيتها في كتابي.

في اليوم التالي رأيتها مهمومة:

ـ ما بكِ يا ماري؟

فاضت الدموع من عينيها:

ـ (مش رح أفلح بحياتي لأنّي ضيّعت الصورة).

ـ صورة من؟

ـ (يسوع).

ببساطة نطقت الاسم، أخرجت لها الصورة، شهقت وشدّتها من يدي، ألصقتْها إلى صدرها وهي تبكي ثمّ أسندتها على الحائط. ركعت أمامها وبخشوع كبير شبكت كفّيها تحت ذقنها وأخذت تهمهم.

انتظرت بدهشتي حتى انتهت:

ـ ماذا كنتِ تفعلين؟

ـ (كنت عَمْ صلّي).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أشرتُ للصورة:

ـ لهذا؟

ـ (طبعًا. هذا يسوع).

ـ من هذا (اليسوع)؟

ـ (السيّد المسيح).

ـ آه.. قصدك سيّدنا عيسى عليه السلام ابن مريم العذراء.

ـ (وابن الله).

ارتجفت:

ـ لا تقولي هذا الكلام، حرام يا ماري الله واحد أحد لم يلد ولم يولد.

ـ (دينكم بيقول هيك).

رجفة أخرى أشدّ:

ـ ليش؟ أنت لستِ مسلمة؟

ببساطة أجابت:

ـ أنا مسيحيّة.

كانت تحضر معنا دروس الدين وتحفظ القرآن! هل تخدعني ماري؟ لم أستطع شنق السؤال:

ـ كيف إذن تحضرين دروس الد...

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

قاطعتني بصوت عذب:

ـ (وشو الفرق؟ كلّها أديان الله ومش غلط أعرف شي عن الإسلام).

ـ وأهلك يعرفون؟

ـ (طبعًا ماما وبابا ما بيمنعوني).

ـ وهل تصلّين صلاتنا؟

ـ (هادي لأ.. صلاتكم صعبة أنا بصلّي متل ما شفتِ هلّا).

ـ هكذا دون وضوء وطهارة؟

ـ (المهمّ يا لبنى طهارة القلب مش طهارة البدن. كم واحد بيصلّي وقلبو مش نضيف).

شغلتني المسألة وطنّ السؤال بعقلي (هل صداقتي لماري حرام؟).

عدتُ إلى البيت مضطربة، حكيتُ لأبي وبرعشة الخائف سألته:

ـ هل ماري كافرة؟

نهرني بصوت حادّ:

ـ لا تكفّري أحدًا.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ لكنّها تقول إنّ سيّدنا عيسى ابن الله وتصلّي دون وضوء.

مسح على رأسي بحنان:

ـ (كل على دينه الله يعينه).

ـ هل أستمرّ بصداقتي معها وأدخل بيت أهلها؟

أزعج السؤال أبي:

ـ يا بنتي أنا أعرف أنّهم مسيحيّون ولم أمنعك عن ماري وبيتهم. اسمعي يا لبنى الدّين ليس صومًا أو صلاة فقط. الدّين أخلاق وحسن معاملة هكذا يجب أن نتعامل مع البشر والدّين لله.

هكذا قال أبي وحثّني أن أحترم دينها وأحافظ على صداقتنا.

حين تركتُ المدرسة لم نفترق أنا وماري. ظلّت تزورني وأزورها، تأكل من طعامنا وآكل من طعامهم، تصلّي في بيتنا وأصلّي في بيتهم، لكن أفكارًا غريبة بدأت تغزوني حين أتوضّأ، وحين أرتدي لباس الصلاة وأصلّي خمس مرّات بينما ماري تصلّي مرّة واحدة قبل أن تنام، أنا أصوم في رمضان شهرًا كاملاً وصيامها امتناع عن الزفر أربعين يومًا. هي لا تجوع مثلي. هل دينهم أيسر من ديننا؟ بدأت أتناقش مع ماري في الفروقات بين أديانّا دون تعصّب. أردتُ أن أعرف أكثر عن دينهم فأعطتني الإنجيل وكتاب (تعاليم المسيح).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بدأتُ أقرأ وما يصعب عليّ تشرحه لي بكل إيمان، وحين قرأتُ تعاليم السيّد المسيح شدّتني وصاياه العميقة الرائعة. لم أخفِ الأمر عن أبي فقال:

ـ كل الأنبياء والأديان تدعو إلى المحبّة والسلام بين البشر.

* * *

ظلّت ماري تأتي بكتبها المدرسيّة وتساعدني لأتابع دراستي معها. وكنتُ بدوري أحكي لها القصص والروايات التي أقرأها والسنوات تمضي بيننا رائعة ممتلئة بالبهجة، حتى كان اليوم الذي أخبرتني به أنّ أباها سيستقيل وسيعودون إلى عمّان. فوجئتُ وانقبض قلبي. عانقتها وكأنّها سترحل للتوّ. كيف سأفارق ماري وقد أصبحت الظلّ والرفيق؟ سأفتقد وجهها الجميل، محبّتها، وصلواتنا المشتركة. لم يفرّقنا الدّين بقدر ما قرّبنا وملأ روحَيْنا بحبّ الله. وحده الموت تشاركنا في كراهيّته بعد أن فقدت أخاها المنغولي إثر حمّى شديدة أصابته. بكت ماري وبكيتُ وتعاهدنا أن لا تنقطع الرسائل بيننا.

لم تكن الحياة وَدودة بعد سفر ماري. كنت أشعر أنّها الأخت التي عوّضتني إحساسي بالوحدة دون إخوة. كان افتقاد إحدانا للأخرى كبيرًا. خفّف من ألمه انغماري بالقراءة ودروس أمّي في الخياطة والتطريز والرسائل التي كنتُ أتبادلها وماري. أكتب لها تفاصيل يومي الصغيرة، أحدّثها عن قراءاتي وأختار منها مقاطع من القصص والروايات التي تعجبني، وأبعث لها

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بصور المفارش التي طرّزتها والفساتين التي أخيطها، وهي تكتب لي كل ما يخطر ببالها ويصادفها في المدرسة والشارع ومع البائعين في الدّكاكين ومع الجيران وعن مشاحنات أمّها وأبيها. ماري تحبّ لغة رسائلي وأنا أحبّ طرافة رسائلها رغم خطّها المزعج. كتبت لها (حسّني خطّك يا ماري). كتبت تقول (شو أسوّي؟ خطّي متل خرابيش الدجاج ما تحلمي يصير متل خطّك ولغتك. يا ملعونة فادتك القراءة. خايفة بكرة تصيري أدبية وتشوفي حالك علينا).

* * *

حين رأى أبي أشغالي اليدويّة وخياطتي انشرح قلبه وداعبني بأمنيته:

ـ حين تتزوّجين سيلبس أولادك من صنع يديكِ.

ارتجفتُ وصوّبتُ إليه ردّي:

ـ لن أتزوّج.

ابتلع الحزنُ وجهه وقال كمن يتوسّل:

ـ ألا تريدين أن تُفرحي قلب أبيك؟

ثار بقلبي العراك. هل أحقّق رغبته ليفرح أم أرفضها لأصدّ عنه وجه الموت؟ سلّط عليّ مسعودة التي أرهقتني بثرثرتها وإلحاحها. أمّي التي تعمّقتْ علاقتي بها بدأت هي الأخرى تزنّ وتطنّ في أذني:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ عاجلاً أو آجلاً ستتزوّجين. لماذا تعذّبين أباكِ؟

ـ هو لم يتزوّج من أجلي فكيف أتزوّج وأتركه وحيدًا؟

لم ييأس أبي لجأ لإغرائي:

ـ سأشترط على زوجكِ أن تعيشا معي هنا.

رغم خوفي عليه من المجهول أشفقتُ عليه فقد كان يُحفّزني بهذا الشرط لأخفض له جناح الذلّ والرحمة. أردت أن أريحه قلتُ مازحة:

ـ إذا كنتَ صادقًا في شرطك أنا موافقة.

بكى أبي. حلف أن يرقص ليلة عُرسي. مسعودة زغردت. أمّي أشعلت قناديل فرحها.

لكنّني بترتُ فرحتهم جميعًا:

ـ تتكلّمون عن العُرس والعريس ما جاء بعد.

ـ جاهز.

نطقها أبي بعجالة وثقة وأكمل:

ـ ابن عمّك.

فوجئت.. فلم يخطر ابن عمّي ببالي أبدًا. كنت أرسم بخيالي رجلاً يشبه أبي.

ـ لا أريد ابن عمّي.

بكل عنفي صرختها. أجفل أبي لكن مسعودة لم تسكت:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ (هذا ولد عمّك وحلاوة الثوب رقعته منه وفيه).

ـ (ولد عمّي صغير وأنا أريد واحد كبير مثل أبي).

كلامي حصد فرحتهما. تركتهما وولّيت هاربة.

* * *

اقتحمت مسعودة غرفتي. ولأوّل مرّة يفارق وجهها الحنان. لوّحتْ بذراعها وصوتها يضرب قاسيًا في سمعي:

ـ (دلّلكِ أبوك زيادة عن اللزوم. وهذي آخرتها.. تبين شايب).

ـ (أبوي مو شايب).

سخِرَتْ:

ـ (ما شاء الله.. ما تشوفين شيبَهُ ترسْ راسه؟ ما لكِ غير ولد عمّك).

مسعودة تناصر أبي. كنت أثق أنّ مصدر غضبها هو الحبّ لكنّني رشقتها بلساني:

ـ لا تتدخّلي بيني وبين أبي.

ـ (معلوم أنا الخادمة وما يصير أتدخّل).

(آخ يا مسعودة!! كيف أقهركِ وأنتِ الأمّ التي تعبتْ وتجعّدتْ لياليها سهرًا. بينما أمّي مُرضعة الحليب تهنأ بين يدي الغريب).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

انقذفتُ إلى حضنها كأرنبةٍ يُطاردها ذئب. تصوّرتها ستكُشّني عنها أو تبصق على وجهي وتهدّدني أن تتركني وترحل. لكنّها رشّت بذار الرفق وصوتها قطرة غيث تغسل سمعي:

ـ (عيوني لبنى.. ترى كلامكِ ما يدخل العقل! شلون تفكّرين بشايب؟).

ـ (الشايب يدلّل والشاب يعلّل). أليس هذا ما قاله أبي يوم رفضت عمّتي الشايب؟

تحدّتني:

ـ (وتاليها من الشايب؟ عمّتك ما جابت عيال).

أمّي حزنت حين عرفت طلبي لكنّها وهي التي تعرف سرّي قالت:

ـ تعلّقكِ بأبيكِ يجعلكِ تبحثين عن أب وليس عن زوج.

* * *

حين استمرّ الإلحاح عليّ بالزواج واشترطتُ أن يكون كبيرًا في السنّ كتبت لماري فردّت عليّ برسالة حانقة (كيف يا هبلة بدّك واحد كبير؟ شو بدّك بالختيار بكرة بيطقّ ويموت، شو جاي على بالك تترمّلي وتربّي أيتام؟ فكّري كرمال خاطري بعدك صبيّة وحلوة وبكرة الختيار بياكل قلبك بالزّنّ والآه والإيه. الرجّال بس يكبر يا لبنى بيصير يُوأوئ ويعِلّ القلب. إن شاالله فكرك كل الرجال متل أبوكي؟ الزواج شي تاني. حبّ

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وجنس زي ما بتقري بهالكتب اللي عم تقرضيها متل الفارة. إنتِ شباب وبدّك واحد يزهْزه شبابك مش ختيار امْرهْرط. شو ما بدّك تتمتّعي بالحبّ والجنس متل مدام بوفاري؟ والاّ نسيتي شو كتبتيلي عنها؟ أنا ناطرة منك مكتوب تقولي إنّك غيّرتِ رأيك وبلاش هَبَل وقلّة عقل).

لم أغيّر عقلي. كلاهما الحبّ والجنس لم يغرياني حتى وأنا أستعيد مشاهد الرواية. من أين لي أن أعرف إن كان الحبّ فوح الزعفران أو رائحة الدخان! كان حبّي لأبي يستأثر بكل مشاعري. كنت حين أقرأ الأشعار وقصص الحبّ الشهيرة أتأثّر، أحزن، وأتخيّل، لكنّي أبدًا لم أضع نفسي موضع بطلة من تلك البطلات ولا فكّرتُ أن أكون عاشقة أو معشوقة. كنت أشعر وكأنّي أخون أبي وأشاركه بغريب كما شاركني الغريب قلب أمّي. ويوم حكت لي ماري عن حبّها لمحمود ابن صاحب المكتبة القريبة من المدرسة سخرتُ منها، حتى عندما فاجأتني ذات يوم زميلتي الفلسطينيّة أمل وأنا سارحة عند شبّاك الفصل المُطلّ على الشارع وأشارت بإصبعها:

ـ (عم تتأمّلي بنادر؟)

أفزعتني تهمتها:

ـ من نادر هذا؟

ـ ابن مصلّح الدراجات ـ وأشارت إليه.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

نظرتُ إليه، أوّل مرّة أكتشف وجوده، فتى أبيض البشرة فاحم الشعر. كان مُنكفئًا على دولاب الدرّاجة ينفخه بالمنفاخ وصوت أمل ينفخ في أذني:

ـ (شوفيه حلو كتير دايمًا بيطّلع فيكي).

زجرتها وأنا أدفعها عنّي:

ـ أنا لم أنتبه له ولا لغيره، لا تهمّني إلاّ دراستي.

* * *

ظلّت ماري تكتب لي وترجوني أن أقبل بابن عمّي، فأكتب لها أنّني لن أتنازل عن طلبي. وفي رسالة أخرى كتبت لي عن يوسف (أنا خطبت لشبّ متل القمر عيونه خضرا متلي، طويل متل رشدي أباظة، وشواربه..! ياي ما أحلى شواربه). تصوّرتها تستثير غيرتي لأحلم بواحد مثل خطيبها وتحفّزني لأغيّر رأيي لكنّني أدركت بعد رسالتها التالية أنّها بريئة من ظنوني وأنّها فقط تريد أن تفرحني (يوسف بيضلّ مشغول. كيف هيك الله وقّعني بمناضل كل وقته للحزب والقضيّة ولمّا نلتقى بيروح الوقت وهو عم يحكيلي عن النضال، لكنّي من كتر ما بحبّه صرت أهتمّ وأقرأ ويبدو إنّي رح أصير مناضلة متله. بيني وبينك أمّي وأبوي منجنّين وما بدهم إيّاه قالوا هادا سياسي وشو بدنا بوجع الراس، بس أنا أصرّيت وفرضت عليهم يسوّوا حفلة الخطبة).

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

سنتان مرّتا قبل أن يأتي الرجل المناسب لشرطي. لم تمضيا بلا محاولات منهم لإقناعي. كان أبي ينوء بحزنه، وضميري يعذّبني. لماذا بادلتُ الحبّ المتألّق بقسوة كالحة وأوجعته وهو الذي لم يوجعني يومًا. هل أتراجع لأداوي قلبه الجريح؟ كنتُ مغلولة بالخوف وهو الذي كبّلني به ورسّخ اليقين عندي بأنّه سيموت ما إن أتزوّج. وابن عمّي شاب لن يحتمل حرائق حزني وتقلّبات مزاجي، لن يدلّلني كما يفعل أبي أو كما فعل زوج عمّتي الذي دلّلها ورفض أن يتزوّج بأخرى حين ثبت أنّ العقر منها. ويوم شبّ بها الحريق بكى وظلّ يضرب على صدره لاعنًا الساعة التي لم يكن فيها بالبيت ليطفئها قبل أن تكتسح النار عروق قلبها.

* * *

كنتُ في السابعة عشرة حين جاء العريس يحمل سنواته الثماني والأربعين. لم أعرف كيف جاء به أبي؛ هل أقنعه أم أغراه!! وهل يرفض رجل بعمره شابّة مثلي تُجدّد شبابه وتوفّر له السكن؟

استعدّيتُ للقائه.. سبقتني مسعودة لتقدّم له الشاي. عادت إليّ بادئة وصلة بكائها:

ـ (يا بنتي وايد كبير عليكي).

لجمتها غير رائقةٍ بحنانها:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ أرجوك يا مسعودة، هذا طلبي.

خرجت الـ. . (مبروك) ممطوطة من طرف لسانها.

جلستُ قرب أبي والرجل أمامي. تفحّصت شكله: عينان ضيّقتان ودودتان. (يبدو حنونًا مثل أبي). صوته خفيض وضحكته غير مُبهرجة (هادئ مثل أبي). نظراته غير صارخة رغم تكلّلها بالسعادة، (وقور مؤدّب). أمّا قلبي الذي لم يُزقزق ولم يهتزّ فيه غصن، فقد ارتاح (لن يُنافس أبي في قلبي). حاسّتي الخفيّة تجوّلت صاعدة هابطة ما بين عقلي وقلبي ثم أعطتني الإشارة (ملائم. . وسأرتاح معه). بعد أن غادر البيت أعلنتُ لأبي:

ـ أنا موافقة.

قال بوجع لم تخفَ عنّي تضاريسه:

ـ كان الودّ ودّي أن يكون ابن عمّك.

لم آبه بوجعه، قلت لأرغمه على الاستسلام:

ـ هذا نصيبي. . وأنا راضية به.

حاول تغليف صوته بفرح مصطنع:

ـ على بركة الله. عساه أن يسعدك ويهنّيك.

في الليل حين احتواني فراغ غرفتي أحسَسْتُ بوحشة، بسؤال نفض ريش قلبي ونثره: (هل بقبولي هذا الرجل قدّمتُ

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

للسماء صكّ الموافقة على دعاء أبي؟ أردتُ انتزاع نفسي من الفراش المُتشوّك إلى حيث أبي وحيدًا مُخضّبًا بالحزن لأغسل روحه وأبرّئهُ من ذنبي وأعلن تنازلي: خلاص يا أبي آخذ ولد عمّي). كنت أعلم أنّني لو فعلت فسأهديه سعادة تُطيل بعمره لكنّني عاندت وقيّدتني حاسّتي إلى قراري. لا أريد أن يشارك أبي أحدٌ في صحن قلبي وقاعه.

• • •

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الزواج

أذكر كل شيء سبق الزواج. أبي أحضر العمّال، وبهمّةٍ غيّر نظام البيت. أوسَعَ غرفتي وهيّأ أثاثها الجديد. أمّي ومسعودة حالة ارتباك! أسواق وشراء قمصان نوم شفّافة، أدوات تجميل، عطور وذهب. ولم تغفل أمّي لمساتٍ من يديها في غرفتي. خاطت لي شرشف السرير وطرّزته بالبرودلي والزهور وبدت سعيدة وهي تفرشه على السرير. أمّا أنا فلم يرفّ لي جفنُ فرح وكأنّ العرس ليس عرسي.

اقترب موعد الزواج. دخلتْ أمّي ذات صباح ترافقها امرأة سوريّة تحمل حقيبة أشبه بالصندوق. فتحتها وأخرجت عدّتها. طلبت أمّي أن أنزع عنّي ملابسي وحين رفضتُ نهرتني:

ـ لا بدّ من نزع الشعر عن جسدكِ.

لأوّل مرّة وجدتني مُجبرة على الكشف عن جسدي لعين غير عين مسعودة. أمّي تتأمّلني بشيء من الانبهار والحزن! هل كان انبهارًا بجمالي، أم حسرةً لأنّه لم يكبر ويترعرع بين يديها؟ وأنا مُحرجة.. خجلانة أحسّ أنّ عينَ أمّي غريبة لا يحقّ لها النظر.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بدأت المرأة عملها وكنت مثل دجاجة ينتفون ريشها. أصرخ، أعافر، أهرب وهي تطاردني. أمّي ومسعودة تضحكان وتعلّقان بكلمات تُضاعف ألمي. لم يسلم حاجبايَ من ملقط المرأة ورغم وجعي أسعدتني النتيجة، بدت عينايَ أجمل وأكثر اتّساعًا.

يوم العرس حال آخر. أمسكت المرأة بجهاز السشوار الحارّ وهي تمشّط شعري الطويل. ثم هندسته بتسريحة احتاجت عشرات الدبابيس لتثبيتها. ثم جاء دور وجهي. صبغته بالكريمات وبودرة الخدود وأحمر الشفتين الذي لم أستعمله قطّ. حين انتهت نظرتُ لوجهي في المرآة فبهرني جمالي وعلّقت مسعودة:

ـ (حسافة[1] على هالشايب).

نظرة خارقة منّي جعلتها تلوذ بوجهها لكن نهدتها المتحسّرة وصلتني كلفح النار.

ارتديتُ ثوب الزفاف الأبيض وطرحة الرأس فبدوتُ مثل قمر تكلّله غيمة. شهقت المرأة فخورة بما أنجزته فخافت مسعودة، وأخذت تقرأ سورة الفلق وهي تدور بالبخور، وأمّي تلهج بالدعاء أن يسعدني الله ويرزقني الذرّيّة الصالحة.

غادرتْ المرأة ومسعودة الغرفة. اختلت بي أمّي، جلست

---

(١) حسافة: خسارة.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أمامي ووجهها لا يخلو من حنان رغم جدّيّته، ولأوّل مرّة أراها تزيح لثام الغريبة وتحدّثني كأمّ:

ـ شوفي يا بنتي.. الزواج سنّة الحياة، وليلة الدخلة هي مزيج من الألم واللذّة وللدّم الثاني فرحة للرجل، فكوني هادئة، مطيعة، ساعديه ولا تنفري منه مهما تألّمتِ فهذا يعطّل قدرته، خاصّة أنّه كبير في السنّ. أخذتْ تسرد لي تفاصيل الذي سيحدث وأنا أرتجف من المجهول وأتعرّق من الخجل وفي عقلي يثور السؤال: أليست مسعودة أولى من أمّي بهذا الحديث؟

* * *

في المساء كانت الأنوار تضيء البيت. لفيف قليل من أهل جفّت المسافات بيني وبينهم، بضع جارات، أهل الزوج الذين لم أعرفهم بعد، وصديقات أمّي. طبول ودفوف وفرقة (عودة المهنا) تهزج بـ... (هبّ السّعد... وعليك إسعيد ومبارك). دخل أبي وبضعة رجال يزفّون العريس الذي لم يُخْفِ انبهاره بجمالي قبل أن يتّخذ مكانه إلى جانبي. أبي اقترب واحتضن كتفيّ ثم طبع قبلاته على وجنتيّ فشعرت برطوبة دمعه رغم فرحه. أصرّ أن يفي بوعده ويرقص. بدا مثل فتىً لم تأكل سنوات العمر والوحدة من شبابه. رقص رقصًا رشيقًا فاجأني. ولم يتوقّف حتى توقّفت الأغنية. كانت أمّي قد جلست إلى جواري سعيدة وهي تتابع رقصة أبي. اقترب منها.. قلبي

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

انتفض.. رأيتهما مثل غريبين يلتقيان على أرض غير ثابتة. تواجها. تصافحا بكفّيهما اللتين نسيتا دفء حبّهما القديم. كفّان مرتعشتان مرسومة عليهما تضاريس اللوعات وغصص الأيّام، وبصوتين نائحين تبادلا كلمة مبروك التي خرجت من قلبين مليئين بالندم. أوجعني المشهد حين لمحتُ نظرة أبي تكاد تخترق بوشية أمّي ليرى الوجه الذي لم يره وظلّ يحبّه. تصوّرتُ أنّه في تلك اللحظة تذكّر ليلة عرسهما وكان قلبي الحيران يأسف (لو صبرت أمّي ولم تصرخ صرختها تلك، ولو تشبّث أبي بحقّه ورفض تطليقها لكنتُ الآن رافلة بفرح الأبوين القريبين لا الغريبين). في عقلي رسمتُ لغدٍ بعيد وعاهدتُ نفسي أن يعيش أولادي في ربوع قلبي ولا أتخلّى عنهم مهما حدث).

* * *

ليلة العرس لكل البنات خير من ألف ليلة. لكنّها لم تكن هكذا بالنسبة لي. هنا غريبٌ في غرفتي ينكشف له الذي لم ينكشف لأحد قبله. وأبي غاربٌ في حجرته المفتوحة للحزن والوحدة والدموع. أيّ الرّجلين أولى بحناني الليلة؟ من منهما الذي يستحقّ أن أندسّ في شقوق قلبه وألامسه بأطرافي؟ إنّه أبي. لكنّني الآن ملك للغريب مرغمة أن أقدّم له الجسد البكر. أيّ لذّة حدّثتني عنها أمّي؟ هل هي تلك التي دفعتها لأحضان الرجل الآخر؟ هل سأحسّها وأحتمل المسّ الأوّل ودمه الحارّ وأنا وما زلت أذكر فزعي يوم بلوغي و...

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لمح الرجل اضطرابي، وربما لمح عينيّ المليئتين بالحنين تخترقان الجدار باتّجاه غرفة أبي، أهداني أوّل لمسة من لمسات حنانه:

ـ (تحبّين أن تشوفي أبوك قبل أن ننام؟).

فرحتُ بحاسّتي التي لم تخطئ بأنّه حنون. سترتُ جسدي المتلألئ تحت قميصي الشفّاف وطرتُ إلى غرفة أبي. قبل أن أدخل تناهى لي نشيجه وصوت مسعودة وهي تواسيه:

ـ (الحمد لله اللي بلّغك فيها، الله يعطيك طولة العمر وتفرح بعيالها).

تسمّرت عند الباب خشيت أن أدخل إليه فيفارق الحياة بين يديّ، مُتصوّرا أنّه أفسد ليلتي الأولى، أو أنّني لم أرُقْ للرجل. عدت إلى غرفتي باكية لأجد من يمسح دموعي بحنان.

عانيتُ ألم الدخول المحسوس، ومضغتُ أوهام اللذّة غير المحسوسة. حين نزفتْ نافورة دمي استفاق مشهد الدجاجة ووجه زوج أمّي. هل كل الرجال يعشقون الدم ولا يستلذّون إلاّ بذبحنا؟ بقيت مطروحة من الألم أحلم بصبح يشفي تعب جسدي ويمسح عنه عرق الليلة اللزجة.

توالت عليّ بعد ذلك لزوجة الليالي وبرودة الأيّام. كنت أنفر من التصاقه بي واقتياته من عرائش جسدي. مرغمة كنت أحتمل الذي لا أحسّ به. هل كنتُ جبّارة على نفسي؟ ربّما لو كنتُ أرخيتُ سدول عنادي وأشرعت نافذة واحدة لدلفتْ منها

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

نسيمات الحبّ. ولو تركتُ جسدي حُرًّا من قيودي لنهلتُ من معين المتعة الذي حدّثتني عنه أمّي وقرأتُ عنه في الكتب. كنت أعذّبُ روحي وأحرمها الإحساس بالحبّ النبيل الذي استرسل الرجل يغدقه عليّ. عذّبتُ جسدي ولم أترك جواد النشوة يصهل فيه، لم أهْدِ زوجي عاطفة واكتفيتُ بتقديم الجسد باردًا لا تنهض فيه نجمة. كنت في بعض الليالي أحلم أنّني أتمرّغ على صدر أبي فأندفع غير واعية لصدر زوجي وسرعان ما أصحو فأنتفض وأكتشف أنّه كان مجرّد حلم شعّ كما الياقوت وارتدّ إلى الظلمة. أخرج من كون الزوج ومداره أتوجّعُ لأبي حيث لا امرأة تفضّ صبره ولا نشوة تداعب جسده. أبكي لأنّ الذي بقربي ليس الأب الذي تكفيه القبلة الطاهرة. بل آخر يتشهّى المرأة ويُقْبِلُ على حرثها بما حلّل له الله. كنتُ أتركه يفعل ويغطّ في نشوته. ثم أغتسل وكأنّي أستغفر جسدي وأقنعه أنّي ما وهبته إلاّ لأجل أن يدخل البذار إلى رحمي وتطلع الثمرة التي ينتظرها أبي. ما أقساني كنت...

* * *

شهورٌ مرّت. شمسٌ تشرق وتغيب. قمرٌ يطلّ ويأفل. فرحٌ يتماوجني وأبي يرفرف في سماء حياتي يملؤها دفئًا وفيئًا. يتناوب والزوج على إسعادي، لكنّ ملامح الكدر في أفق العينين الحانيتين بدأ يلوح وسؤال يُزمجر ولا يُفصح. أدركتُ أنّ صبر أبي قد نفد فأناب لسان مسعودة يطاردني:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ (اشتنطرين[1]؟ أبوك يتحسّر).

لطشتها بلساني:

ـ ما ذنبي؟ هل أقول له كُن فيكون؟

قالت شامتة بلا قسوة:

ـ (حتى تعرفين أنّه رجّال كبير وبذوره ميّتة).

ـ هذا أمر الله، ألا تؤمنين بالله؟

ـ (لا إله إلاّ الله. سبحانه قادر أن ينعم بنعمته).

هل تشملني نعمة الله أم أنّ النقمة كما الموت ستُغَيّبُ نسلي؟ بدأتْ المخاوف تحرّك مجاذيفها وتعكّر مياهي. هل ورثتُ عقر عمّتي؟ كلهم بدأوا يزفرون قلقهم. أبي ومسعودة وحتى أمّي.

* * *

يوم زفّتْ لي ماري خبر مولودها الأوّل (الياس) فرح أبي وأفصح عن أمله أن يفرح بمولودي المنتظر. شعرت بالغيرة من ماري رغم فرحي لها. كنّا في إحدى رسائلنا اتّفقنا أن نترافق بمواليدنا ليكبروا معًا، وبطريقتها المرحة كتبت لي (شوفي يا لبنى. أنا أجيب ولد وأنتي تجيبي بنت ونزوّجهم لبعض.

---

(١) اشتنطرين: ماذا تنتظرين؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وبعدين انتي تجيبي ولد وأنا أجيب بنت وكمان نزوّجهم لبعض ونصير الحموات الفاتنات). كتبت لها (يوه يا ماري، إذا أنجبت ولدًا يستطيع أن يتزوج ابنتك لأنّ ديننا يسمح بالزواج من أهل الكتاب. لكنّ البنت غير مسموح أن تتزوّج من ابنك المسيحي). ردّت تقول (وشو المشكلة؟ بخلّي إبني يأسْلِمْ. راس مالها أشهد أن. . .). جاء ابن ماري وما جاءت ابنتي. كتبت لي وأصرّت أن أراجع طبيبًا ففعلت. وكانت النتيجة ممتازة. كتبتُ لها (مسعودة تقول إنّه رجل كبير وبذوره ميتة). سخرت منّي (مسعودة هبلة ويمكن خرّفت ومع هادا خلّيه يشوف طبيب).

بعد إلحاح منّي راجع طبيبًا، والنتيجة لا سبب يمنع.

ظللتُ أشنُّ حملات قلقي لماري ولم تضق بي، منحتني اهتمامها، شاركتني عذابي وظلّت محاولاتها الدائبة لانتزاع فتيل قلقي. كتبت لي في إحدى رسائلها (حِبّي جوزك ودفّيه، النطفة متل البزرة إزا ما حبّتْ الأرض ودفْيت ما بتفقّس).

هل لا بدّ أن يكون الحبّ لتتكوّن النّطفة؟ (غلطانة يا ماري لا دخل للحبّ في الموضوع. هل كل النساء تحبّ أزواجها؟ ماذا عن النساء المُغتصبات! هل أحببن مُغتصبيهنّ؟ ومع ذلك يحبلن). جاء اقتراح ماري وبإصرار (طول ما إنتي شاغله بالك بالموضوع ما رح يجي. بطّلي قلق).

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

كيف (أبطّل قلق) وقد أصبح مطرقة النار على المسمار! حالتي تسوء. ازددتُ عصبيّة ونفورًا من كل شيء. حال أبي يتغيّر، وحال زوجي ليس بأفضل، أحسّه مكهربًا بالحرج والخجل وكأنّه يلمح في نظراتنا اتّهامه بالتقصير، كان يحرُثني ليل نهار برغبة وبدون رغبة، يصبُّ الماء على التربة لكنّها لا تستجيب. حال مسعودة هي الأخرى لا يسُرّ. باشرتني بفنّ جديد. كانت تضع كفّها على بطني العاري تدهنه بالزيت وهي تقرأ القرآن وتدعو الله من قلب محروق أن يملأ وعاءه. قالت ذات مرّة:

ـ (يمكن صايبتك عين حارّة).

أمّي خافت وصدّقت ولكي تقتل العين الحارّة جاءت بامرأة لترقيني. وضعت إناء الماء الحارّ على رأسي وصبّت فيه الرصاص فأصدر صوت طشيشه رائحة المعدن. وأنا مستسلمة أحاول أن أقنع نفسي بأنّ هذا سيفكّ العقدة. لكنّ العين التي توهّمتها أمّي لم تنكسر. فحاولت أن تواسيني:

ـ يا بنتي أنا مثلك تأخّر حملي بك.

قفز سؤالي:

ـ (يُمّهْ.. ليش ما جبْتِ لي إخوان؟).

قالت بأسى:

ـ أمر الله.. يمكن أنا عاقر وأنت (بيضة عقري).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

عقر من سأرث؟ عمّتي، أو أمّي؟ يا رب هَبني ولو بيضة عقر تُبهج قلب أبي.

البيضة في علم الغيب، وحال أبي معلوم أمامي، فَقَدَ شهيّته للزاد فنحل جسده وفارقه النوم، صارت تفاجئه نوبات اختناق، عرف الطبيب على إثرها طريقه إلى بيتنا واتّخذت أشكال وأنواع الدواء مكانها قرب سريره. عقري الموهوم رهق قلب أبي وضيّق شرايينه فضاق الكون أمامي. صرتُ ألازمه، أتابعه، أناوله الدواء بنفسي ولا أغادر غرفته إلاّ إذا غطّ وشخر.

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

غياب أبي

مضت سنة وبضعة شهور. وبدل أن يبذر الله روحًا في أحشائي اختار روح أبي. كان ذلك في ليلة مجنونة ماطرة، فوضى الطبيعة وصوت الريح جعلاني وزوجي نتأخّر في سماع الطرقات على باب غرفتنا. وحين فتحنا صدمنا وجه مسعودة المشقوق من الهلع، ركضنا إلى غرفة أبي، المطر يغرقني وريح خوفي تدفعني بأمل أن ألحقه لكنّ المنيّة سبقتني إليه. الوجه مُطفأ والعينان فارغتان بلا رفيف. ارتميت عليه، صرخت وصرخت لعلّ صراخي يوقظه، ضربتُ على صدره لعلّ القلب المتعب يتثاءب، لكنّه كان قد نام نومته الأخيرة وكأنّ السماء ضاقت بدعائه فقرّرت أن ترفعه من الأرض التي دبَّ عليها وعرف أوّل ما عرف الحزن والوحدة.

ماتت أزهار أبي قبل أن تصافح ثغورها الفراشات. شتل الموت أولى غرساته المُرّة في أرض البيت وأرض قلبي. خيّم الحزن الطاغي على فضاء حياتي وتموّج في أهدابي مطرًا لا يجفّ. لم أغادر غرفته لأسابيع، أصرخ وألعن الموت وأكلّم

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الله وأدعوه أن يأخذني إلى حيث أبي لأستريح. أفيق من لوثتي وأنا أتمرّغ في فراشه، أستنشق رائحته الغافية على الوسادة. أحضن غترته وأغسلها بدموعي، أمسك بمسبحته التي يحبّها، أشدّ عليها بين أصابعي لتهديني تسبيحاته المخلصة. أداعب نظّارته الطبّيّة التي يوم لبسها أوّل مرّة مازحني (شابت عيون أبوك مثل ما شاب راسه. ما بقى غير القلب). بادلته المزاح (وليش القلب ما شاب؟) فتح ذراعيه واختطفني وهمس (شلون يشيب وأنتِ فيه ورده).

(آه يا يُبَهْ.. رُحتْ وخلّيت الوردة تصير عود أصفر، خلّيت ديوان قيس بن ذريح يتيمًا بدونك هو الذي عشقته وأسميْتني على اسم حبيبته لبنى. قلتَ لي إنّ أمّي لم تحبّ الاسم ولم تناغني به لأكثر من شهر على أمل أن تُغيّره لكنّك لم تفعل فاستسلمت).

كنت أدفن وجهي كل ليلة في وسادته، أسكب دموعي في أوعية أشيائه، وحين يضيق عليّ المكان لا أجد وسيلة للخروج من شقوق لحظتي غير الكتابة فأسطّر له الأشعار. أكتب الهوامس والهواجس، أسمع صوته الذي كان دائمًا يُشجّعني (اكتبي.. أحبّ كل شيء تكتبينه).

غاب صدر أبي. بحثتُ عن صدر مثل صدره يُؤوي يُتمي وكانت كل الصدور متأهّبة لتكون العوض: صدر زوجي، صدر مسعودة، وصدر أمّي الذي امتدّ فضاء داعيًا أجنحتي أن

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ترفرف فيه وتشدو. كل الصدور كنت أحتاجها لكنّني تذكّرتُ حبّ أبي لأمّي، فالتجأت لصدرها وأرخيتُ كل حبالي باتّجاهها. بدأت أشعر بأنّ لي أمًا ما ينست منّي وظلّت تقرض أبواب الجفوة لتقرّبني منها. أمّي فرحت بانغماري عليها وصارت تنزّ حبّات سكّر على جروحي فيدبّ نمل الراحة إلى تجاويفها الدّامية. هنا صدّقت أبي الذي قال لي يومًا (أمّك تحبّك كما أحبّك أنا). زوجي الذي راقبني أسعده ميلاد العلاقة الجديدة وعبّر بقوله:

ـ هل كان يجب أن يموت أبوك لتحبّيها؟

قالها ببراءة لكنّني غضبتُ. تصوّرت أنّ الغيرة لسعته وتمنّى لو أحببته بدل أمّي؟ لكنّني حين اختليت إلى نفسي فكّرت بكلماته وتساءلت (هل حقًّا كان وجود أبي هو المانع والعائق؟ هل اندفعتُ نحو أمّي للدّرجة التي قبض عليّ زوجي مُتلبّسة بحبّها؟). في داخلي أضاءت حقيقة أنّه في حالة الموت يولد شيء جديد، قد تموت نبتة فيظلّ جذرٌ صغير منها مُتشبّثًا بالأرض يمتصُّ الماء ويُزهر وقد يصير شجرة تتحدّى الموت. قد تموت الأمّ في لحظة الولادة ويعيش الطفل مُؤكّدًا استمرار الحياة).

الحياة والموت قدران متلازمان. قدرٌ نحبّه لأنّنا نعيشه ونفرح بهداياه.. وقدرٌ نكرهه ونخشاه لأنّنا لا نعرف مصائرنا بين يديه. وأبي صار في العدم الذي أجهل سرّه ومكانه. أمّي

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الآن هي الحياة الباقية، فلم لا أخوض غمارها وأهنأ ببساتينها؟ كسرتُ الحواجز القديمة، صرتُ أسعى إليها غير آبهة بوجود زوجها ولا بكلماته المُتذمّرة. صارت أمّي ترفض مرافقته إلى بغداد ولم يخجل أن يعاتبها أمامي:

ـ (أشو أوّل بغداد روحك وقلبك.. هسّه اشصاير؟).

اشصاير؟ ألم يفهم بعد أنّني صرت (البغداد) وصرتُ الروح والقلب؟ فلماذا يريد أن يسرقها ثانية؟ ألا يكفي ما سرقه من عمرها وعواطفها؟ آن الأوان أن أسرقها منه لأحظى بما حظِيَ به. في سرّي انتعشتْ الشماتة به (مُتْ بغيظك أيّها الظالم يا ذابح الدجاجة التي أرقْتَ دمها وكأنّك تريق دم بكارة وتنتصر).

* * *

خفّتْ بعض أوجاعي وأمّي تفتح شبابيك صدرها، تحتفي بعاطفتي، تدخل عليّ محمّلة بالهدايا وأدخل عليها بدفاتري المحشوّة بسكب روحي لتقرأها ورغم إعجابها يتلوّن وجهها بعدم الرضى. تدفع بالأوراق نحوي وكأنّها تهشّ غرابًا أسودَ وتعاتبني:

ـ (هاي اشبيج لبنى! يكفي حزن عاد. الأرض باسطة فردوسها جدّامك).

كتبتُ لماري (من أين جاءت أمّي بهذا التعبير الجميل؟ حسبتها جاهلة). عاتبتني ماري (دايمًا بنفكّر أمّهاتنا جاهلات.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

إحنا يختي بنتعلّم من الكتب هِنّي بيتعلّموا من الحياة. أمّك عانت وعرفت الشّقا بكّير). هل لهذا السبب تزوّجت أمّي؟ هل نفذت بحرائقها من حياة أبي لتطفئها في مياه الفراديس التي قصدتها؟ هل كانت أشجع من أبي وهي تطرق أفق الحياة المضيء بينما جَبُنَ هو واختار الوحدة جُبًّا مُعتمًا؟ أمنية أبي وحلمه لم يموتا، واصلتهما أمّي:

ـ (أريد أشوف عيالك وافرح بيهم).

حالة اليأس التي ارتدتني بعد موت أبي جعلت نار القلق تبهت وزعيق المطرقة يخفت لكن أمّي تولّع الفتيل ويبدأ الحريق يلامسني معجونًا بقلقي (هل أنا عاقر؟ هل كتب الله بلوحي ألاّ أتذوّق طعم الأمومة التي منحها للطير والحيوان وحتى للحشرات الصغيرة؟).

ذات يوم وجدتُ في زاوية الشارع قطّة ترتعش فحملتها إلى البيت. أدفأتها، أطعمتها. وبعد أيّام اكتشفتْ مسعودة أنّها حامل. تهيّأ لي أنّ مسعودة ثرثرت في سرّها (سبحانك يا ربّي.. الحيوان يحمل ولبنى محرومة). وأظنّني همست بالشيء ذاته في داخلي، لكنّني لم أحقد على القطّة ولم أحسدها، بل راعيتها خاشية على عنقودها حتى جاءت لحظة ولادتها. لازمتها وأنا أتألّم لألمها وكلّما انفتح سبيلها ليخرج مولودًا آخر أغلقتُ فخذيّ وكأنّ ألم الخروج يمزّق سبيلي. خمسة مواليد بكلّ عُسرها، لكنّ ألم القطّة سرعان ما تبخّر وباشرت تلعق

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

صغارها وتحضنها، فتمنّيت في سرّي أن أحضن طفلي، وحين استلقتْ مانحة أثداءها لصغارها صلّيت بداخلي سائلة الله أن يهبني طفلاً لأرضعه حتى وإن كان بيضة عقري.

صارت القطّة وصغارها تأخذ كل اهتمامي. صرت أمًّا لقطط لا تحسّ بأمومتي. مسعودة لا تكفّ دعواتها ورغم يقيني بصدقها إلاّ أنّها كانت تعذّبني وتواجهني بعجزي أن أكون أمًّا. تجاهلتُ وضعي. ربّما كان ذلك يأسًا لم أقرّره، وربّما انشغالي بالقطط حقّق لي أمومة أنستني قلقي.

ثلاثة شهور مرّت وما توقّعت أنّ أجراس الفرح ستقرع وتعطي الإشارة. مسعودة التي رأتني أزوع أشهى الأكل فرحتْ بزوعي لكنّني برّرته:

ـ طبخك لذيذ.. يمكن أكلت زيادة.

لكنّها دغدغتني بظنونها:

ـ (ويمكن حامل وهذا زوع النساة)(١).

أيّ مدى اتّسع لي بعد أن تحقّق ظنّها؟ للفرح لوثة الجنون المفاجئ، كيف يمكن أن أسيطر على عقلي؟ تقافزت بالحوش ومسعودة تلحق بي فزعة تتشبّث بي وأفلتُ منها. لم أستفق من جنوني إلاّ حين صرخت:

---

(١) النساة: الوحم.

تنسيق:علامة تعجب www.ibtesama.com

ـ (بس.. لا يطيح الجاهل).

ما طاح...

استراح.. واستطاب له الانبطاح في الرّحم البكر. دفِئ، ارتوى من دمي الذي جعل قلبه ينبض وحواسّه تتكوّن وأطرافه تكتمل. ويوم أشرق وجه عفاف لم أصدّق أنّ حلمي تحقّق لكنّه كان الأشبه بالقمر دون اكتماله، تمنّيتُ لو كان أبي حيًّا ليفرح بها وبعيال آخرين تمنّى وانتظر أن يلعبوا على ظهره وبناموا بين جفنيه.

صار للحياة وجه أجمل. تأكّد لي كلام أمّي أنّ الحياة تبسط فردوسها، تهدي أرغفة خبز حارّ وقطرة ماء، فكانت عفاف أوّل قطرة في صحراء حياتي. حضنتها بحنان وشغف غير مصدّقة. عرّيتها من ثيابها الأولى لأتأكّد أنّها سليمة من أيّ تشوّه، تذكّرت الذي قالته ماري يوم عرفتُ بحملها وسألتها (ماذا تتمنّين يا ماري؟ ولد أو بنت؟). كتبت لي (المهمّ الخلاص والخلقة متل الناس، والاّ نسيتي أخوي اللي مات؟).

جاءت عفاف جميلة مثل فلقة القمر. صوت أمّي المُنشرح لم يخلُ من عتب مُغلّف:

ـ (همّه صرتِ أمّ.. جزا الوالدين على الله).

مسعودة لم تنطق. كانت شهقات فرحها تغلبها.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ارتفع صوت زوجي مغمورًا بالنشوة:

ـ جميلة.. مثل أمّها وجدّتها بدرة.

تأمّلته وهو يحضنها بين ذراعيه غير مصدّق. أبي الذي غاب عن لحظة فرحي قفز أمامي (آه يا أبي لو كنتَ الذي يحملها الآن، يباركها، يتلألأ من لألائها، يرقص على ألحان بكائها الأوّل). فاجأني البكاء. أمّي هلعت:

ـ النفساء ما يصير تزعل ولا تبكي.

ـ تذكّرت أبي.

ـ (عسى روحه في الجنّة.. ماله نصيب يفرح فيها).

ولتخرجني من ضباب حزني، دسّت عفاف إلى صدري:

ـ (حبّيها.. ورضّعيها ترى ماكو شي مثل حبّ الأم وحليبها).

* * *

أمومتي المتفجّرة وسعادتي بعفاف وهي بين يديّ جعلتاني أنزح إلى أمّي وأتساءل (هل كان فرح أمّي بي يماثل فرحي بعفاف؟ هل شعرتْ أنّ عصافير الدنيا كلّها تغرّد حين سمعتْ مناغاتي الأولى؟ ويوم بدأتُ أجلس، هل شعرتْ أنّها ملكة تتربّع كرسيًّا في الجنّة؟ ويوم خطوتُ خطوتي الأولى، هل صار لقلبها قدمان إن تعثّرتُ نهض عجولاً ليدرأ العثرة؟ ولمّا نطق

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لساني (ماما)، هل سال العسل بكل شراييني؟ هل شعرتْ أمّي بكل تلك المشاعر التي شعرتُ بها؟ كيف لي أن أعود طفلة لأنبش ستائر قلبها، أحكّ جدران ذاكرتي، وأستلّ شواهد على ذلك؟ هل تتشابه قلوب كلّ الأمّهات؟ إذن كيف استطاعتْ أمّي أن تقطع رباطنا وتصرخ (خذها لا أريدها).

كنتُ أعمد في وجودها أن أضاعف حناني لعفاف وأبالغ باهتمامي بها. هل كان شيء شرّيرٌ يدفعني لأذكّرها بأنّها حرمتني حنانها؟ كنت وكأنّني أريد الانتقام لنفسي، لكن وجه أمّي السعيد البعيد عن نواياي لا يشفُ أنّها تلتقط إشاراتي الشرّيرة. كانت في زياراتها تغدق حنانها على عفاف، وحين تشدّها إليها أحسّني أسمع خشيش صدرها، لوعاته، وأمنيتها أن يرتدَّ بها الزمن فأعود طفلتها لتذيقني مثل هذا الحنان. كان دعاؤها حين تراني أرصّ عفاف إلى صدري يأتي من قلبٍ مبلّل بالطمأنينة:

ـ الله يحفظها لك.

وبدل أن أشكرها كنت أشير لأذكّرها:

ـ ويخلّيني لها لتكبر بين يديّ وفي حضني. لن أتركها ليد أخرى تربّيها.

أذكر كيف طاف حزن شفيف على وجه أمّي وأنا أدقّ مساميري في قلبها. وكيف زفرت متأسّية وهي تداري عنّي نظرتها وصوتها يرشّ بخار غليانها:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ (ماكو أمّ تفرّط بعيالها، بس حكم الزمن كان أقوى).

خرجتْ أمّي موجوعة ومسعودة التي لا تخفى عليها خافية أنّبتني بقسوة:

ـ (ما تخافين من ربّك؟ تكسرين خاطر أمّك وتهينينها).

كثيرًا كسرتُ بخاطرها غافلة أو عامدة. كان تناقض مشاعري نحوها يعذبني. أعطيها صكّ الاعتراف بأمومتها حينما تحنو عليّ وتندفع لعفاف بشوق. وحين تشنّ تلك الصرخة بواريدها القديمة أبتعد عنها، أقلّل من زياراتي لها وأتململُ من زياراتها لي. كنت أغار من التصاق عفاف بها، لم أكن أريدها أن تحبّ أحدًا غيري. لكنّي في ليال كثيرة حين أتأمّل وجه عفاف غاطًا بالنوم يقرصني ضميري، بل يعُضّني، ينهشني، ويُكيل لي بالقدر الذي أكيل به لأمّي. فأبحث عن سبيل يحرّرني من وجعي. هل أفتح سريرتي لزوجي أم أصارح مسعودة؟ أم أعترف لأمّي وأطلب غفرانها؟ لم أجرؤ. خشيت أن يكون اعترافي البوّابة التي تدخل منها أمّي إلى خصوصيّة حياتي وتمارس سيطرة مارستها على أبي من قبلي. لمن ألوذ وأبوح بسرّي؟ لم أجد غير يوسف وماري وكأنّهما الكاهن الذي يسعى إليه المذنبون ليعترفوا بخطاياهم، راغبين في الراحة الأبديّة. هاتفتهما، كان ردّ ماري حادًا وقاسيًا (ولكْ صرتِ أمّ وبعدك مش عاتقة أمّك من ظنونك. إرحميها). أمّا يوسف الهادئ فقد تفهّم مشاعري وقدّر ألمي. نصحني أن أغلق أبواب

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الماضي وأبرّ بأمّي ليرضى الله عليّ وتبرّ بي عفاف حين تكبر. بعثت كلماته الاطمئنان إلى روحي لكنّها لم تفلح أن تنظّم العلاقة بيني وبين أمّي فعادت كما كانت قبل وفاة أبي ما بين مدٍّ وجزر.

* * *

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

رائحة الموت

حين تفتح الحياة فراديسها أمامنا لا تهدينا الوردة وتحجب السكّين! لا تفرش الأرض بالعشب وحده بل تُبقي الأشواك والحجارة والحُفَر. في نشوة سعادتي حسبتُ أنّ الموت قد طوّح بشراعه بعيدًا عن بيتي وما حسبته يُروّض نفسه ليقفز قفزته الثانية.

بدأت ديدان المرض تتسرّب إلى زوجي. كنت أراه يتآكل أمامي يومًا بعد يوم. أتألّم لأجله، لأجل نفسي بعد أن صار العوض لي بعد أبي. كنت أريده أن يعيش لأجل عفاف كي لا تفقد الأب وهي لم تزل في سنتها الثالثة. حنوتُ عليه، دأبت أسهر، أهديه حنانًا ما عرفه خلال سنواتنا الماضيات، كنت في بعض الليالي أسمعه وهو يبكي وأحتار، هل تُراه من ألم المرض أم من وجع الفراق المُنتظَر؟ هل هو الخوف على عفاف؟ لقد صدق حدسي، بدأ لا يكفّ في أيّامه الأخيرة عن توسّله الشديد ووصيّته:

ـ انتبهي لعفاف، هبيها حياتك كلها، لا تتزوّجي.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

هل كان يدرك وأنا أزامل وجوده الإنساني مانحة له الجسد، أنّ قلبي لم يذق طعم الحبّ ويخشى أن أقع فيه بعد موته؟ أم هل كانت أنانيّة المريض المحكوم عليه بالموت؟ أو هو شعور الأب الذي يمارس أبوّته حتى اللحظة الأخيرة؟ وصيّته كانت تُشقيني. كأنّه يريد أن يذكّرني بفعلة أمّي التي تركتني وتزوّجت.

لم يكن الحبّ يَشغلني. عفاف وحدها كانت مشروع الحاضر والآتي. أعطيته الوعد صادقًا بأن أكون لها الأب والأمّ. كان يلاحظني وأنا أدرّب نفسي لمواجهة الحياة، ورغم شقائه وآلامه كان يعبّر عن ارتياحه:

ـ قوّتك تطمئنني عليك وعلى عفاف.

لم يكن سهلاً عليّ أن أقنعه بقوّتي. إنّ ملازمة رجل مريض تجعل الحياة مُعتمة وعباءة الموت لا تحاصره وحده بل تحاصرني. ماذا لو مُتّ أنا؟ فالموت لا يحدّد أعمار ضحاياه وقد ينفر من الجسد المريض ويختار شبابي. صار الليل قبرًا لمخاوفي، أحسّها كالزواحف تسري بين طيّات جسدي ومنافذ روحي. وجدتُ اليقظة خيرًا من النوم، صرتُ لا أنام. وحين تلتمع خيوط الفجر وتتهدّل خصلة الشمس الأولى أفرح بيوم جديد، أحسّ بشارته تشحنني بالقوّة تلك التي يراها زوجي ويصدّقها وتطمئنه على عفاف.

في لياليه الأخيرة الحالكة، صار يتلوّى ويعوي بصرخات

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

تشقّ عباب الليل. صرخات تتوسّل الموت وتستعجل الخلاص وكأنّ وطآت الألم العنيفة ولحظات النزع الأخير حين تطول تجعل قدوم الموت أرحم من انتظاره.

انتظرَ.. وانتظرتُ معه. وفي ليلة رطبة طلب رشفة ماء لكنّها قبل أن تصل إلى جوفه فارقته الروح وكفّه تشدّ على كفي.

* * *

للموت طعمه المرّ ورائحته المُزكمة. وللحياة جاذبيّتها رغم أنّها ليست خلودًا دائمًا، بسطها الله جميلة وزاهية لنرتمي في حدائقها، بعكس الموتى الذين يكتفون بالكفن ومساحة أرض صغيرة تطويهم بالنسيان. عذّبني موت أبي وعلّقني موت زوجي عند الحافّة الحادّة. أرملة، شابّة، جميلة وفي الحضن طفلة تتشبّث بقلبي والقلب مُثقل. لكنّني بدأت أزيح الثقل، فأوجاع الموت إن حاصرتني سأتوقّف عند أعتابها نادبة نائحة. لا شيء يقهر أوجاع الموت غير حبّ الحياة. وكان عليّ أن أحبّها، أبحث عن مخابئ السرور حتى وإن كانت في أعماق الحجر. ليس قاسيًا صدر الحياة، هو مثل صدر الأمّ تعرف كيف تُسرّب حنانها وتغزل جنّاتها. عليّ أن أركض إلى الصدر أتذوّق حلاوة الثدي ورائحة الجنائن من أجل عفاف التي تيتّمتْ، من أجل نفسي، فالعمر عود أخضر ومشروعي الجديد لن يتحقّق إلاّ بين البساتين وعند الضفاف الأخرى. كان عليّ أن أتحرّك. بدأتُ بتغيير البيت الذي عرّشت في سقوفه وجدرانه روائح الموت.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

انطلقتُ إلى بيت صغير حديث العمران، وما كدت أتلمّظ طعم استقراري حتى فاجأتني أمّي بتدخّلها غير المتوقّع:

ـ (ما يجوز تعيشين وحدك).

كظمتُ غيظي. باردة خرجتْ كلماتي:

ـ مسعودة معي.

ـ (وَلوْ.. مسعودة ما تقطع عنك ألسنة الناس).

أيّ ألسنة؟ ما فكّرتُ بشيء اسمه ألسنة الناس. كنت دائمًا بعيدة عنهم فمن له الحقّ الآن أن يمدّ لسانه بمقصّ مسموم ليقطعني؟ أمّي ظلّت تُثرثر. تحاملتُ على نفسي:

ـ القصد يا أمّي؟

رشقتني بردّها وكأنّها ترشق ماءً أجاجًا:

ـ (ما يستر الحُرْمة إلاّ الرجّال).

أيّ أسلاك شائكة تفكّر أمّي أن تُسيّجني بها؟ أيّ إحساس يتملّكها بولاية أمري؟ أيقظتْ شوك الماضي. صار حِرابًا نابتة على لساني صوّبتها إليها:

ـ تريدين أن أصير مثلك.. أتزوّج وأرمي ابنتي.

تعكّر صوتها:

ـ أنا ما رميتك. أبوك هو الذي أخذك.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ وأبو عفاف مات، لو تزوّجتُ من سيأخذها؟

تصوّرتْ أنّني بدأتُ ألين، بحماسة قالت:

ـ أنا جدّتها... آخذها.

بعثتْ أمّي حقد طفولتي الذي تصوّرتُ أنّ حرائقه قد انطفأت. لم أحتمل. قرضتُها بردّي:

ـ أنت لم تحتملي طفولتي لأجل رجل فكيف ستحتملين عفاف؟ قلبك قاسٍ يا أمّي.

ثارت أمّي. انتصب وجهها القديم الذي كان يعْنفُ بوجه أبي، فنفشتُ غضبي كما ينفش القنفذ شوكه. فأنا فلم أعُدْ تلك الطفلة التي يُرعشها الصراخ فتلتوي في ظلّ الجدار أو حضن مسعودة.

صرختُ.. صَرَخَتْ.. صرخنا.. صرخ الصراخ.

أمّي في هجمة غيظها نسيت أنّني صِرتُ أمًّا. قطّة شرسة أمام اليد التي تحاول أن تخطف مولودها، وأنا باسم أمومتي نسيت حقّ الأمومة، صارت أمّي العدوّ الذي يُباشر بالحرب فتجاوزتُ حدودي وواجهت العدوان حاسمة الأمر:

ـ لن أسمح لك بالتدخّل في حياتي.

خرجت أمّي.. تدحرجت كتلة ثلج من سهول القلب الذي ما كاد يضيء حتى جاءت لتطفئه. قرّرتُ أن أقطع المسافة

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بيننا. خفتُ أن تواصل لسع لسانها ولدغ أفكارها فيصيبني الارتباك ويزعزع قوّتي فأرضخ للتعاسة.

* * *

بعد هدوء العاصفة عذرتُ أمّي، هي تفكّر ككلّ النساء المضفورة أفكارهنّ بتقاليد المدن المُغلقة. جدّتي بثينة عانت بعد موت جدّي عبّاس الشويحي، أمّي بدرة عانت بعد طلاقها من أبي. الخوف من كلام الناس يعني البحث عن رجل حتى وإن كان ناقص الرجولة ليكون السّياج لنساءٍ مذعورات. لن أكون امرأة مذعورة تبحث عن سقف تستظلّ به وحائطٍ تستند عليه. لن أسمح للزمن اللاّهث أن يبعثر أوراقي ويقتل طموحي. لن أسمح لأمّي أن تُلقّحني بالدم الفاسد. زمني غير زمنها. أحلامي غير أحلامها. وضعي الجديد يفرض جهادًا من نوع خاصّ لا تعرفه أمّي وهو شيءٌ يستحقّ الجهاد.

تكبر عفاف بين يديّ. النهارات شموسٌ تنفتح لأجلها، والليالي شموعٌ تُضاء لمشروعي. متعة العيش مصادقة كتاب. القراءة فعل الأبوّة القوام. والكتابة فعل أموميٌّ بكل بطشه. مصافحة وجه المولود تجرف الألم من قيعانه، ومواليد الورق تصبح بغلاوة مولود من لحم ودم، من عظم ونبض. فِعْلان في آن واحد.

نزفٌ باتّجاه الورق. نزفٌ آخر باتّجاه عفاف. تربية طفلة وحيدة بين دلال مدفوع بحبّ الأم، وحزم يعوّض دور الأب

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أمرٌ صعب. وضرورة بناء جسور متينة من الصراحة والمكاشفة كان هو الأصعب. أفرحني ذكاء عفاف المتوقّد، أسئلتها غير المُتوقّعة، لكن مسعودة ضاقت بها. كانت أحيانًا تثور عليها فلا أغضب لقناعتي أنّها الجدّة الفعليّة لعفاف. أردت أن أخفّف عنها، صارحتها وصوتي لا يخلو من حزن:

ـ كنتُ أتمنّى يا مسعودة لو أنّني عشت مع أمّي أسألها وتجيب.

ـ (كنت تسأليني أنا وأبوك وكنّا نجاوبك).

ـ ليس كل الأسئلة يا مسعودة.

كيف أخبرها عن تلك الأسئلة التي اشتهيت أن أطلقها وظلّت حبيسة؟ هناك مساحة بين الأب والبنت لا يمكن تجاوزها، لذلك حاذرت أن أخلق مساحة بيني وبين عفاف. هناك خيط من نوع آخر موثوق بين الأمّ وابنتها. حاولتُ أن أشرح لمسعودة لكنّها لوت شفتيها باستياء:

ـ (والله ما أفتهم كلامك. يمكن كبرت).

كبرتْ مسعودة. لكن قلبها ظلّ محتفظًا بحنانه متواصلاً بالأجيال. منحت منه لأمّي بدرة ولي أنا ومن ثم لعفاف. أحيانًا تبدو كمن خرّفت، لكنّها كانت في حضور أمّي تمتلك كلّ حواسّها فتقطعان الوقت تتذكّران نسائم الماضي بحلوه ومُرّه.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لم تتركني أمّي بصفائي وتفرّغي لعفاف وللكتابة. كانت بين وقت وآخر تشقّ غلالة راحتي بسكّين حسرتها التي تطلقها:

ـ (لازم تتزوّجين حرام تضيّعين شبابك).

شبابي...؟

شيء لم أحمل همّه.. لم أفكّر بإرضائه ومتعته. كيف أشرح لأمّي أنّني ظللتُ جسدًا ميّتًا لم يستطع الزوج أن يفجّر فيه نبعًا ولم يستنهض عروق شهوته وهو يدبّ عليه. لا تعرف أمّي أنّ ما عِشته مع الزوج كان عمرًا باردًا فارغًا من أيّ إحساس بالمتعة، فكيف لي أن أتمنّاها وأبحث عن رجل يمنحها؟ شيء واحد حرصت عليه هو قلبي ليظلّ أخضر مثل شجرة تبني عفاف بين أوراقها عشّها الصغير. أنهيت الحوار مع أمّي مُشدّدة على كلماتي:

ـ حين تكون العصفورة بقلبي فما حاجتي لغراب يشاركها فيه وقد يفترسها؟

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

حديث الموت

كبرت عفاف، جاءتني ذات صباح سعيدة ومُشرقة:

ـ ماما.. باركي لي لقد بلغْتُ.

ومضتْ الفرحة على وجه مسعودة لكنّها استغربت جرأة عفاف:

ـ (حسرة علينا. يوم بلوغنا مُتنا من الخوف).

ليس من شيء أخفيه عن ماري ويوسف. قلب الأمّ عبر الهاتف يحمل لها بشارة البلوغ. ماري التي فرحت لم تُخْفِ امتعاضها:

ـ (بنتي كارين هالمقصوفة بعدها).

ـ لا تنسي أنّ عفاف أكبر منها بشهور.

ـ (لأ يختي... بلدكم حارّة بيصير دمْكم حامي. إسمعي، شو رأيك؟).

ـ بماذا؟

ـ (عطلة الربيع قرّبت. هاتي عفاف وتعالي).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ فكرة حلوة.

ـ (فكرة للتنفيذ مش للتفكير. بعرفك حبالك طويلة).

خيّبتُ ظنَّ ماري.. قصّرتُ حبالي. أخذت عفاف وطرنا إلى عمّان. بيت ماري الصغير بقرميده الأحمر كان غاية في الجمال، حديقته ملأى بالورد. أشجار السّرو المحيطة بسورها أشبه بقامات النساء الأنيقات. حين دخلتُ أدهشني ترتيب أثاثه وأناقته، أحسستُ بدفء الحبّ فيه، أخذتْ بيدي إلى الغرفة التي خصّصتها لي ولعفاف وبروحها المرحة:

ـ (هادا زيّ (هلتون) صغير، كل شيء بتحتاجيه موجود حتى الإبرة والخيط وأعواد الأسنان).

هي ماري منذ أن عرفتها، لم يبهت جمالها ولا حيويّتها. أمّا يوسف فهو أجمل ممّا وصفته برسائلها، فارع الطول ممتلئ قليلاً، أسمر بوجه مستدير عيناه واسعتان بلون الحقول وأنفه دقيق. شفتاه مكوّرتان تحتميان بشاربين كثّين طويلين يمتدّان حتى آخر ذقنه. شاربان مُميّزان. ماري حاولت أن تغريه ليقصّهما لكنّه يرفض وحين آزرتُها قال:

ـ حين اعتقلوني ذات مرّة لم أخشَ من التعذيب لكنّي خفتُ أن يقصّوا شاربيّ.

كان أنيقًا ببساطة، يكره ربطة العنق وحين تُصرّ ماري أن يلبسها في المناسبات يتذمّر (لا أدري لماذا يُصرّ الناس على

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

شنق أنفسهم). منذ شبابه انتمى للحزب الذي يناسب مبادئه ودخل معترك الحياة السياسيّة، شاركته ماري في معارك (أيلول الأسود) وأصيبتْ برصاصة في فخذها ممّا سبّب لها عرجًا خفيفًا. يوسف رجل (بيتوتي) نجح في تربية أولاده. ابنه الياس كبر ويدرس في إحدى جامعات أميركا وكارين تريد استكمال دراستها في الجامعة الأردنيّة، ترفض أن تسافر وتتغرّب. أخذتْ من جمال أبويها ومن خفّة ظلّ ماري. حيويّة ومُقبلة على الحياة بشهيّة.

انسجمتْ عفاف مع كارين منذ اللحظة الأولى. لم أستغرب فعلاقتنا أنا وماري تسمح أن تنتقل عدواها إلى بناتنا. همَمْتُ أن أفتح حقائبنا لكن ماري اعترضت:

ـ (خلّيها بعدين هلأ بدنا نطلع نتغدّى).

أخذنا يوسف إلى مطعم صغير، رصّ الجرسون المقبّلات على الطاولة. بدأنا بتناولها بانتظار المشويّات ودار الحديث بيننا حين بادرتني ماري:

ـ (قصّتك المنشورة أخيرًا كتير حلوة).

أبدى يوسف رأيه:

ـ لكن نفسيّة البطلة كانت تهيّئها للانتحار.

ـ كنتُ أريدها رغم آلام المرض أن تنتصر على الموت. تعرفني أكرهه.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ شعورك الخاصّ لا يجوز أن تُسقطيه على أبطالك.

تدخّلت ماري:

ـ (يا عمّي ما بدها تموّتها، وهيك بتخلّي القارئ يتفاءل).

التفتَ نحوها محتدًّا:

ـ هكذا لن تقنع القارئ، لأنّ شخصيّة مريضة من هذا النوع لا بدّ أن تأتي بفعل مجنون.

ـ (هلّأ قصدك تقول إنّ كل اللي انتحروا مجانين؟).

أشار إليّ وهو يضحك:

ـ إسألـيها.. هي تقرأ وتعرف كم من عظماء العالم، سياسيّين، أدباء وفنّانين ماتوا انتحارًا.

أيّدت كلامه وأعطيت كثيرًا من الأمثلة. علّقتْ ماري ضاحكة:

ـ (يعني إذا صرتِ أديبة كبيرة راح تنجنّي وتنتحري؟).

ـ لا يمكن.. أنا أكره الموت وأتمنّى مثل جورج أمادو لو أعثر على مكان لا يصله الموت.

قالت:

ـ (شوفي.. إحنا متل القصص، ربّنا بيكتبنا وبعدين بيمحينا، أحسن شي ما تفكّري بالموت).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ يشغلني يا ماري وأخاف أن يأخذني على غفلة.

علّق يوسف:

ـ أجمل الموت هو الذي يأتي بلا إنذار.

وافقته ماري:

ـ (أنا شخصيًّا بحبّ أموت وأنا نايمة).

ـ أنا لا أحبّ فجاءته. تصوّري. أنا أتمنّى أن أصاب بالسرطان ليعطيني فرصة للاستعداد له.

انتفضتْ ماري، سقطت الشوكة من يدها، قرقعت بالصحن وصوت ماري يقرقع:

ـ (الله يلعنه من مرض كيف بتتمنّيه يا مجنونة؟).

ـ أريد أن أعيش تجربة الموت البطيء.

ـ (وشو بدّك بهالتجربة؟ ناقصك تقولي بدّك تكتبي عنها؟).

ـ ليش لأ؟

نرفزت ماري واحمرّ وجهها:

ـ (هذا مرض بيشِلّ الحركة والدماغ، مش رح تقدري تكتبي، في كاتب من أصحابنا انصاب فيه وكانت الكتابة آخر شيء يفكّر فيه).

ـ أنا أريد أن أتهيّأ لموتي.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ (بشو إن شاء الله؟ بدّك تلبسيله فستان فرح)؟

ـ ليش لأ؟ السرطان هو المرض الوحيد الذي يعطينا الوقت لنستعدّ لموتنا.

ألقتْ بالشوكة والسكين بعصبيّة. مسحت شفتيها بالفوطة:

ـ (خلاص.. بلاش هالسيرة سدّيتي نفسي عن الأكل).

أصررتُ أن أفلسف فكرتي لماري:

ـ الموت المفاجئ مثل رجل شرّير يأتي ليقطع رأسي بالسيف على غفلة، بينما الموت البطيء مثل رجل طيّب يدقّ بابي يدعوني للرقص، يدوّخني ويتركني أعيش أسابيع أو شهورًا ويمكن أن أشفى منه.

قالت متذمّرة:

ـ (ما تحلمي.. ما حدا بيشفى منه ولا حدا بيحبّه).

تنحنح يوسف قبل أن يقول:

ـ أحد ملوك الفراعنة استقبل الموت سعيدًا لأنّه سيحرّره من الحكم ومن النساء.

سخرتْ ماري:

ـ (هدول حكّام زمان. حكّام اليوم ما بيتزحزحوا).

قلت:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ ليس دائمًا، سنغور مثلاً تنازل عن الحكم لأنّه فضّل أن يظلّ شاعرًا.

قال يوسف:

ـ هذا من النوادر. حكّام اليوم يتمسّكون بالكرسي، يخافون حتى الدخول إلى الحمّام حتى لا يحتلّ مكانهم أحد.

بظرفها قالت ماري:

ـ (بسيطة بيحطّ نونيّة تحت كرسيّه).

أفرطنا بالضحك فانشرحت ماري:

ـ (أيوه هيك خلّونا نضحك، بلا سيرة السرطان والموت).

التفتَ يوسف نحو عفاف وكارين:

ـ ما شاء الله.. تتكلّمان ولا تأكلان.

قالت ماري وسعادتها لا تخفى:

ـ (خلّيهم عم يتعرّفوا على بعض منيح).

سأل يوسف عفاف:

ـ (ماذا تنوين أن تتخصّصي؟ والاّ ناوية تصيري كاتبة مثل أمّك؟).

خجلت عفاف، تولّيتُ الرّدّ:

ـ عفاف تميل إلى الطبّ، ويمكن تُغيّر رأيها.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

تحمّست عفاف:

ـ لن أغيّر رأيي.

* * *

ما كدتُ أزهو بتفوّقها وبشارة نجاحها حتى فاجأتني:

ـ ماما.. سأدخل الجامعة الأردنيّة مع كارين.

لطمتني. كأنّها استكثرت عليّ أن أتمدّد في ساحة فرحي بعمرها الذي زها وأن أواصل رعايتي وأفردُ خيمة أمومتي لأحميها من حرٍّ وقرّ. أيُّ نفير يدقّ باب حياتي؟ كيف أتصوّر أن تبتعد عنّي وتُيتّمني وأنا التي نما يُتمها في غدير قلبي وفوق أهداب سهري؟ أيُّ لوعة تصبّ في حناياي وتنهشها؟ هل يريد الله أن ينتقم منّي لأجرّب لوعة الفراق التي جرّبتها أمّي؟ الرّحمة يا عفاف!

ـ كيف تتركين أمّك؟

ـ أظنّ مستقبلي يهمّك وستوافقين.

قلبي الذي يتمزّق لا تسمع شخيطه، مشاعري المذعورة لا تُحسّ برجفتها، قرّرتْ أنّني سأوافق ولم تترك لي فسحة للنقاش. كانت ثقة المحبوبة المُدلّلة بقلب أمّها الأوسع من بحر. صمتَ لساني وقلبي يبتلع شوكَهُ. فكّرت بصوت غير صوتي ليقنعها. اتّصلت بيوسف وماري. تصوّرتُهما سيؤازرانني. لكنّ الرّدّ جاء عكس توقّعي، ماري سخرت منّي:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ (هدول بنات اليوم، مش زيّنا بس يحَمّروا أهلنا عيونهم فينا بناكل خرا).

قال يوسف برزانته وهدوئه:

ـ لا تعتبريها مصيبة. ابني الياس اختار أميركا. عفاف على الأقلّ اختارت عمّان والمسافة قريبة.

بكيت:

ـ لا أطيق أن تبتعد عنّي.

ـ لا تعتبريها مصيبة. ابني الياس اختار أميركا. عفاف على الأقلّ اختارت عمّان وستكون في عيوننا.

انتصر لها يوسف دون استهانة بعواطفي. هوّن عليّ فتقبّلتُ الأمر.

* * *

ونحن نزور أمّي ذات عصر، التقطتْ بذار الحزن على وجهي، فأخبرتها عن سفر عفاف. أبدتْ استياءها ونظرت إلى عفاف معترضة:

ـ (ما عندنا بنات تسافر بروحها).

غضبتْ عفاف لكنّها سيطرت على هدوئها:

ـ أرجوك يا جدّتي.. أمّي وليّة أمري وهي راضية.

ثارت أمّي:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ (بسّ ولا كلمة.. تأدّبي).

انقبض وجه عفاف فلم تَهُنْ عليّ، تدخّلتُ:

ـ (يُمّهْ.. بالهون على بنتي).

قذفتني بردّها وهي تنظر لعفاف:

ـ (لو كانت بنتي لقصفتُ رقبتها).

رشقتُها بابتسامة تُسفرُ عن ذلك الماضي:

ـ تفعلينها.. ألم تقصفي عمر طفولتي وعمر أبي معك؟

اشتعلت نار أمّي:

ـ (أبوكِ ـ أسْوَدْ الوجه ـ سوّدَ قلبك عليّ بعد أن سوّدَ عيشتي وخَرَبَ البيت و.. و..)

توالت قنابلها دون رحمة. أيّ حقد اختبأ كلّ تلك السنين في قلب أمّي واستفْرغته أمامي دفعة واحدة؟ كيف جرُؤتْ أن تهين أبي وهي تعرف مقامه في قلبي؟ كانت مسعودة تحاول أن تُسكِتها لكنّها واصلت حملتها وهي تطلب شهادة مسعودة على فعلة أبي مع تلك المرأة.

لم أحتمل. تلبّسني شيطان رجيم لأصدّ هجومها. أنا الأمّ واهبة الحنان نسيتُ أنّ التي أخاطبها (أمّ) أوصى الله بالخضوع والطاعة لها. تدفّقتْ رغواتُ غضبي، هبَبْتُ واقفة واتّجهتُ صوب الباب. أذكر كيف تجاهلتْ أمّي غضبي ولحقتْ بي

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

مذعورة تتوسّلني أن أنتظر لكنّني بعنف فتحتُ الباب وأنا أحلف أن لا أدخل بيتها أبدًا. بوجع لاحقني صوتها نازفًا رجاءاته واعتذاراته لكنّي لم أشفق عليها ولم يندحر شيطاني. خرجتُ من بيتها وصورة خروجي الأوّل وصرختها (خذها لا أريدها) تلاحقني فصرختُ بدوري (لا أريدك). هل كنتُ أنتقم لأبي أم لنفسي لأذيقها مرارة تلك اللحظة القديمة؟

لم تستسلم أمّي لقراري الفظيع، بكلّ أمومتها جاءت إلى بيتي، فأغلقتُ باب غرفتي وتركتها تتبلّل بنشيجها أمام عفاف ومسعودة. كلّفتْ زوجها ليسترضيني. جاء يطرق أبواب رحمتي ويُريق ماء وجهه ذلاً وتوسّلاً لكنّ قلبي ظلّ مغلولاً. هل تصحّر لهذا الحدّ؟

في اللّيل تمدّدتُ على فراشي فشعرته منقوعًا بالجمر، تحسّستُ قلبي. حاولت أن أزجّ أناملي لتتفقّده، تبحث في مناطقه الحارّة عن الجزء المعطوب لأستأصله قبل أن تسري عدواه لكل الأجزاء. بحثت عن مكمن القسوة لأجتثّه لكن أصابعي لا تصل والقلبُ احتلّته جيوش العناد. لماذا فقدتُ المقدرة على الرّفق وخفض الجناح وجرؤت أن أرفع يدي في وجهها المصعوق؟ تبّتْ يدي التي لم ترحمها.

زارتها مسعودة ذات يوم وعادت حزينة باكية:

ـ (أمّك عزّمت أن تسافر وما ترجع).

لم أهتمّ. تصوّرت أنّ مسعودة اخترعت كذبة لتعيدني إلى

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

صواب الرّأفة، لكنّه كان قرار أمّي الذي نفّذته، تحزّمتْ جروحها ويأسها وغادرت إلى بغداد.

* * *

ألهتني الحياة وأسفاري لعفاف وبحر الحزن الذي غرقتُ فيه بعد فجيعتي بموت مسعودة تحت عجلات سيّارة طائشة. لم تنس وهي تقبضُ على آخر أنفاسها أن تشدّ على يدي وتزفر كلماتها الأخيرة المتقطعة (اسألي عن أمّك). اعتبرتها وصيّة بعنقي وأردتُ أن أحقّقها.

طرقتُ أبواب جاراتها لعلّ نسمة أمل تفتح لي باب أمّي. لكنّ الأمل خاب. ظللتُ بحسرتي سنوات طويلة قبل أن تدقّ بابي إحدى جاراتها وتهديني البشارة بعودتها. لم أكد أفرح حتى لجمتْ فرحتي بالخبر:

ـ أمّك فقدت زوجها. ولا أمل لها إلاّ أن تراك.

آه يا قلب الأمّ الذي لا تذوي ثمراته ولا يعرف القسوة. عادت وكل أملها أن أكون تطهّرتُ من عنادي لأحتوي وحدتها وأهبها البرّ والسلوى.

كنت بعد أن ابتعدت عفاف عنّي أتلوّع لفراقها. تتشقّق شفاهي عطشًا لقبلة. يتجمّر فراشي بالشوق لبردها وسلامها. لكنّي متأخّرة أدركت أنّ أمّي عانت مثلي. وأنّ قلبها بيت التلألؤ والحنان مثل قلبي يتقلّب في أفران اللهفة.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أمّي عادت.. يأتيني صوت أبي ذلك اليوم (أمّك عادت وتريد أن تراك). يومها كانت ردّة فعلي قاسية. لكنّ اليوم غير الأمس. أنا في قمّة حاجتي لأمّي. نلتوي ببعضنا. صدرها يفتح لي صدره وصدري ينبطح في سرير صدرها وعلى وسائده. أخذتُ أهتف باسمها (أمّي.. يا حلوة اللبن سأرتمي على قدميك وأطلب غفرانك).

لكنّ الموت سبقني وكان أحنّ عليها منّي.

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أمطار الحبّ

بدأتُ أشعر بسنوات العمر الجميل توشك أن تتسرّب منّي. سفر عفاف رهنني لظلال الوحدة الباردة، أحسّ بقلبي عطشانَ لجدول عذب، جوعانَ لقطوفٍ دانية، محتاجًا لألوان تُزخرفه، لألحان تعزف له بدء النهارات وانتهائها. كان السكون يجعلني مثل كتلةٍ تبتلع وميض نهار آفل لتتمدّد في ليل تنطفئ نبضة الحلم فيه. صرت (كريشة في مهبّ الرّيح واقعة... لا تستقرُّ على حال من القلق). كانت الكتابة هي ملاذي، أهرب إليها، ومثل قربةٍ ملأى أتدفّق بسيلي على الورق. لكنّها لم تزح عنّي ذلك الشعور الغريب الذي يقتحمني بلجاجته (هناك ما ينقصني! هل أحتاج لشيءٍ يُكمله؟).

أين يكون الاكتمال؟

ظللتُ مثل البحر في روتينه الدائم محصورة بين دائرتين: حبّي لعفاف وانخراطي في الكتابة. فهل ستعوّضني عفاف سنواتي الغاربة؟ وهل تكون الكتابة العوض عن الرجل؟

كنت أتنقّل بين البلدان، تتضاعف كمّيّة المعارف

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

والأصدقاء، أتبحّر في العيون فلا أجد لي مخبئًا آمنًا فيها، كلها تفتح صنابير عطشها وحين تصدمها تربة استقبالي الجافّة تُطبق جفونها.

كيف هو الحبّ؟ ألا نكتمل إلاّ بهذا الجنون؟ كل النساء تحبّ، تعشق، تمارس حقّها المشروع وغير المشروع. وأنا!! أليس لنفسي حقٌّ عليّ؟ وشباب جسدي! هذا الذي أقلق أمّي فكانت بكل حبّها وخوفها تحثّني أن أصطفيه وأرحمه، أليس له حقٌّ هو الآخر؟

سافرتُ إلى عمّان التي صارت موطني الثاني الذي أرغمت عليه لألتقي عفاف ويوسف الذي تعوّدت أن أفضفض له وأرتاح:

ـ ما الذي ينقصني يا يوسف؟

حدجني بنظرة ثاقبة كمن يتفحّص داخلي وقال:

ـ أخشى أن أصارحك فتغضبين.

ـ ما سألتك إلاّ لأسمعك. قُلْ ولن أغضب.

ـ لا يكون الاكتمال إلاّ بالحبّ.

داعبته ماري بشقاوتها:

ـ (بتقول الحبّ؟ ليش إنت شو بتعرف عن الحبّ؟ آخ بس لو أحكيلك يا لبنى).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

زفر يوسف. شعر أنّ ماري ستحوّل الجدّ هزلاً، طلبتُ منها:

ـ أرجوكِ يا ماري أنا بحاجة أن أسمع يوسف بهدوء.

بغضبٍ مُصطنع لملمت كُرات الصوف وصنّارتَيها وقامت:

ـ (رح أريّحكم وأقوم. ضلّوا إحكوا للصّبح).

تنهّد يوسف ارتياحًا. هزّ بنانه ليؤكّد ثانية:

ـ سمعتِ الذي قلته. الحبّ هو الاكتمال.

ـ كيف؟ هل هو ثمرة تسقط العين عليها في لحظة جوع فيقرّر القلب قطفها؟ أنا أتصوّره قدرًا كالموت.

ـ جميل ما تقولين. لكنّ الموت يحتاج لقبر مفتوح ليحضن الجسد، والحبّ يحتاج لقلب مفتوح ليزرع فيه الوردة، وأنتِ يا لبنى أهملتِ قلبك واحتكرتِ عاطفته لاثنين. في الماضي لأبيكِ والحاضر لعفاف.

هو ينطق بالواقع. حبّي لأبي لم يفتح قلبي حتى لمُصلّح الدرّاجات ولا لزوجي. وحبّي لعفاف جعل قلبي لا يشعر بنظرة تدغدغه، وجسدي لا يرتعش لملامسة كفٍّ تصافحني. أهملتُ الاثنين. لم أفكّر بالقلب الحارّ المُحتاج لشلاّل حبّ، ولا بالجسد المنسوجة خلاياه من الشهوة والاحتياج. ماذا عليّ أن أفعل لأحرّك مياهي الراكدة؟ هل أرتمي أمام كل نظرة باهتة أو

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

تلك التي كالرّماح تغوص بلحمي؟ هل أفتح الباب للطارقين والطّارئين، وما أكثرهم؟

ـ كيف يا يوسف؟ الأمر ليس بيدي. لم أصادف بعد رجلاً يهزُّ كياني.

ـ قد تكون أكثر من صدفة مرّت لكنّ اهتمامك بعفاف وانغماسك في الكتابة يُلهيان قلبك. اسمعي.. تذكّري دائمًا مقولة أمّك التي أعجبتكِ (الحياة تفتح فراديسها) ادخلي الفردوس يا لبنى، سيدركُكِ الحبّ من حيث لا تعلمين.

كأنّ ماري سمعت حديثنا، دخلت لتقول:

ـ (بدّو يجيكي الحبّ غصبٍ عنّك).

ورفعت نظرها إلى صورة السيّد المسيح المعلّقة. صلّبتْ على صدرها وهتفت:

ـ (يا يسوع افتح قلبها وسهّل طريقها).

وجودي بين يوسف وماري ولقائي بعفاف يوقد القناديل. وحين تأزف ساعة السفر أحسّ نورها يبهت. ماذا ينتظرني في مدينتي غير وحدتي؟

وهي تودّعني في المطار قالت عفاف:

ـ سننتظرك في رأس السنة لنحتفل معًا.

ـ أعذريني يا حبيبتي، أنا مدعوّة لمؤتمر هامّ. ثم سأسيح لأنّني بحاجة إلى راحة.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

تضايقتْ.. زفرتْ:

ـ يووه يا ماما نريدك معنا.

عاتبها يوسف برقّة:

ـ ماما محتاجة تعيش حياتها لا تحتكريها.

ثم نظر نحوي نظرة خبيثة:

ـ سافري، لفّي العالم ـ وضحك قبل أن يقول ـ لعلّ وعسى!!

كلمة (لعلّ وعسى) بكل اتّساعها حرّكت رغبتي أن أرخي عقال قلبي ليتسلّل إليه من يستحقّ القلب المفتوح.

* * *

كنتُ أتصوّر أنّ الحبّ لن يأزف ويزفّني إلى مرابعه لكن (لعلّ) جاءت و(عسى) حطّت ركابها عند ضفاف العمر.

كيف أصدّق...؟

أنا التي تصوّرتُ أنّ البوار أصابني كما يصيب الأرض المهجورة بلا حراثة، ما حسبتها رغم بوارها تنتظر دفقة ماء تصُبُّ على وجهها الجافّ، تروي بعض البذور المنسيّة فتنتعش، تكبر، تتورّم، ثم تنفلق وتخرج النبتة من مخبئها تتحدّى الموت والمستحيل.

جاء الحبّ... غزا بقاع قلبي غزوٌ لا يختلف عن تلك

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الغزوات التي تقلب كيان الأرض. لا أدري كيف جاء! لكنّني للوهلة الأولى شعرتُ أنّ الله هيّأه لي دون كل النساء. كان يشبهني، مهووسًا مثلي بالأقلام والأوراق والموسيقى. بالبحر والصحراء والليل والمطر. كان كمَّن يملك نصف الدنيا وأملك النصف الآخر، ولا بدّ أن يلتقي النصفان لتتشكّل حياة جديدة. حين مسّني الشعور الغريب، اكتشفتُ أنّني طوال السنوات الباردة أرقد على بركان من النار لم يحتج لجهد كبير ليتفجّر، مجرّد إزاحة حجر صغير وانفتحت الهوّة. تغيّرتْ الحياة، صارت للكون ألوان بديعة لم أكن أعرفها. أنا أيضًا تغيّرتُ، تحوّلتُ طفلة تتورّد بشرتها، تهتاج في عينيها صواعق الفضول والدهشة، تدبّ في أطرافها قوّة الريح فتشتهي اعتلاء الموج والطيران. صرتُ امرأة تنتقي ألوان الفساتين الرّبيعيّة. تبحث في جواريرها المُهملة عن أدوات الزينة والإكسسوارات المنسيّة. صار قلبي يندفع إلى صنبور الزلال. جسدي يصرخ كجائع لمح كسرة خبز مدهونةً بالعسل. إحساسٌ مشوبٌ باللذّة لا يمكنني تجاهله أو مراوغته أو محاولة تحنيطه. هذا الإحساس جعلني أعذر أمّي وأندم لأنّني قسوتُ عليها، ولم أقدّر احتياج جسدها المحروم. تذكّرتُ قولها (الفراديس تفتح أبوابها). صوت يوسف هو الآخر يحثّني (ادخلي الفردوس). وصوت الحبّ يحرّضني (ادخلي بقاعي وادخلي جنّتي). لكنّ صوت الخوف كان يقف بالمرصاد (لا تقربي الحبّ ففيه ذلٌّ وعذاب). أمّا صوت مدينتي المنغلقة فكان لا يفتأ يحذّرني

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ويهزّ العصا في وجهي (الحبّ رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبيه).

صراعٌ قاس يهاجم ليلي ونهاري، كلٌّ يشهرُ أسلحته المسنونة وحُجَجَه الأسَنّ! وعليّ أنا العزلاء من كلّ سلاح أن أواجه الحرب غير الرّحومة. كنت بين النار والنار. لا أقوى على طمر الهتاف الريّان ولا أن أغلِقَ فوهة البركان. تأرجحتُ بين إقدامي وإحجامي، أصارع صراع غريق بين الموت والحياة. والنّداء يحفّزني (أقدمي. لا تكمني تحت الرماد. الحبُّ حقٌّ من حقوقك وليس سقوطًا في بُؤر الحرام). ارتبك عالمي، والشوق لا يفتأ يسحبني إليه. صارت النهارات منشارًا والليالي رياح تُسرّبُ إليّ وجهه البعيد فأغمض نوافذ عينيّ لأصدّ الوجه. تتحوّل الصورة همسة تسكب حلو الكلام فأفتح الراديو ليمنع مُراودة الهمس، لكنّ الوجد يوقظ أوردة قلبي، أشعر بخطواته تهرول باتّجاهي كحوافر حصان تقلع الصخر وتثير الغبار. لا مفرّ.. إنّه يسكنني. يندفع إلى أحلامي ويلتوّى على جسدي فأرتعب خشية أن تصحو فيه جذوات الرغبة فتزعق أجراسي وتوقظ عيون المدينة وتفاجئني متلبّسة بالنشوة فتطالب برجمي.

صرتُ لا أنام، كنت من قبل أحبّ ارتماء الصمت في فراشي، لكنّه صار مثل رجل يُميط لثامه ليناورني ببحّةِ صوته الخشن فلا أنام. وفي النهار أهرب إلى البحر، أرتمي بقلبه

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وكأنّني أقتحم الرجل الذي أحببت. أستحمّ بعرقه، أذيب فيه عطوري وملحي، أدفئ جليدي وأطفئ حريقي، أذرو متاعبي فتاتًا للأسماك الجائعة وأخرج بلا أثقال، أرتمي على الرمل الدافئ، أغمض عينيّ، أحسّه يجيء خلسة ويندسّ في تلابيبي، يتمدّد بجانبي ويعيدني لذكرى لقائنا الأوّل في مدينته الغائصة في الخضرة.

في أوّل مشوار معه فوجئتُ به يصطحبني إلى البحر. فتحتُ باب السيّارة، خلعتُ حذائي، ركضتُ على الرمل الحارّ وهو يلحق بي ويصرخ (قفي) لكنّي لم أقف، هرولتُ إلى البحر، أسقطتُ جسدي فيه، خوّضتُ، رقصتُ، وخرجتُ أتقاطر. عيناه المندهشتان وضحكته باتّساع وجهه وكلماته الساخرة:

ـ تصوّرتكِ امرأة وقورة.

جرحتني الكلمات. كنتُ لتوّي أحسّ بطفولة جديدة. عاتبته بسؤالي:

ـ هل الحبّ حماقة؟

باستغراب:

ـ هل تعيشين حالة حبّ؟

سؤال لم يَخْلُ من فضول، أشرتُ إلى البحر:

ـ نعم.. وهذا حبيبي.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

يومها ما خطر ببالي أنّ الأيّام ستمضي وسيأتي يوم أشيرُ إليه وأقول (أنتَ حبيبي).

شجّعه فرحي الأوّل أن يأخذني كل يوم إلى البحر:

ـ مثلك أنا مهووس بالبحر.

أشياء أخرى تقرّبنا وتسعدنا. كانت الأيّام تنتعل (البوتوناج)[1] وتزحلقنا. لا يفاجئنا جوع أو عطش، فالحبّ كالمصل المُعلّق بذراع المريض يضخّ الغذاء والماء، فتصبح للقلب رائحة رغيف وملوحة ماء.

فتح قلبي وفتحتْ مدينته وجهها بلا براقع. منحت دفئها، ظلال مقاهيها، أشجار شوارعها، أسنان موجها، كل شيء يُهدي لطفولتي المولودة الفرح والأمان والحرّيّة. أيّام مرّت كالحلم ممتلئة وسريعة. غادرته وروحي مشبعة بحبّ الحياة وقلبي ممتلئ بضوء وجهه.

* * *

لم أحتمل مهرجاني وحدي. وليس من أحد يقطف ثماره الأولى غيرهما، يوسف وماري. فاجأتهما بحضوري إلى عمّان. عانقتني ماري مرتعشة، كان وجهها دافئًا وباهتًا. قرصني القلق الملعون:

---

(١) البوتوناج: حذاء بعجلات.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ هل أنت مريضة؟

ـ بداية أنفلونزا.

وجه يوسف متعب وعيناه حزيتان سألته:

ـ وأنت بداية ماذا!؟

ردّت ماري بسرعة:

ـ (تعبان من الطريق. كان في الشام من شويّ وصل).

ـ خير؟

ـ (لأ.. مش خير).

ـ التفتُّ إليه، عيناه مبلّلتان. تنهّد:

ـ كنّا ندفن (أبو حدّاد).

البلل صار دمعة تكاد تهوي في فنجان قهوته، قال متحسّرًا:

ـ كان من أشرس مقاتلي شعبنا. عاش شجاعًا بلا ادّعاء ولم يقهر شجاعته غير المرض. عانى منه ثلاث سنوات قبل أن يموت.

قالت ماري:

ـ (مات بالحسرة. كان متمنّي يموت في فلسطين وكلّ مالها هالفلسطين بتصير بعيدة).

حسم يوسف الحديث:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ خلاص يا ماري، همّ الوطن مثل بركان الدم لو كشفنا عنه سيغرقنا.

كعادتها كانت تمسك بصنّارتي الصوف وتحيك برشاقة كنزة جديدة ليوسف سألتها:

ـ ألا تزهقين من شغل الصوف؟

ـ (بتسلّى و...).

قاطعها يوسف:

ـ تتسلّين في النهار وفي الليل أوجاع وشكوى.

التفتَ نحوي:

ـ كتفها تعبة ولا تقبل أن تذهب للطبيب.

نفضتْ بكفّها:

ـ (روح يا شيخ فشْ ورا الدكاترة إلاّ وجع القلب).

عاتبتها:

ـ (يا ماري لازم تشوفي طبيب حتى تعرفي سبب الوجع).

زفرت:

ـ (يا ستّي أوجاع الدنيا أكتر من أوجاع البدن هيدا كلّه من شغل الصوف).

سألني يوسف متلهّفًا:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ المهمّ أنتِ.. ما أخبارك؟

توقّفت ماري عن الحياكة ونظرت ليوسف نظرة ماكرة:

ـ (بيني وبينك مش شايفها مزهْزهَة وراجعة عشر سنين لورا؟).

ثم التفتت نحوي غامزة بعينها:

ـ (شو السيرة؟ في شي؟).

قبل أن أنطق سبقني يوسف:

ـ واحدة راجعة من السفر، غيّرت روتينها ومرتاحة. ها...؟ كيف كانت السفرة؟

شعرتُ بريقًا يخاتلني ويشعّ منّي:

ـ آخ يا يوسف لم أرجع منها سليمة.

قال منزعجًا:

ـ خير؟ ممّ تشكين؟

أطلقتها كالرصاصة:

ـ من الحبّ.

غرّد صوته رغم حزنه ووقاره:

ـ معقول؟ أخيرًا؟ وبعدك ساكتة؟

جرس الموت والحبّ يعزفان معًا:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ أردت أن أبشّركما فسمعتُ خبر أبو حدّاد. يبدو أنّ الموت يلاحق بشاراتنا.

بطريقتها المرحة، قالت ماري:

ـ (يا ستّي كله موت).

داعبها يوسف:

ـ (ولماذا لم تموتي يوم أحببتني؟ كنتْ ارتحتْ منّك).

لوَتْ شفتيها ساخرة منه:

ـ (اسم الله عليك كان وين بتلاقي وحدة متلي بتتحمّلك وتناضل معك؟).

نظر إليّ ضاحكًا مشيرًا إليها:

ـ شفتِ هالمجنونة؟ كانت مثل النحلة بين المصابين. تصوّرتها رح تموت لكنّها قطّة بسبعة أرواح.

قبل أن تعلّق استعاد جدّيّته ودفع إليّ بسؤاله:

ـ صحيح الذي قلتِه؟

ـ صحيح.. معقول أنا أقع في الحبّ؟

مطّ إصبعه باتّجاهي وهزّه مؤكّدًا:

ـ أنتِ بالذّات.. تصلحين للحبّ.

لم أكن قد فكّرتُ إن كنت أصلح أو لا أصلح قلت:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ هل تراني أصلح للحبّ فعلاً؟

ـ طبعًا.. هناك نساء يصلحن للمطبخ، أخريات للفراش، ونوع ثالث للتفاهة، وبعض النساء يصلحن لقيادة هذا العالم.

علّقت ماري:

ـ (والرجال.. لشو بيصلحوا؟).

أجاب، ليريح نفسه من مشاغباتها:

ـ ولا لشيء، هل ارتحتِ؟

كَرْكَرَتْ ماري:

ـ (على رأيك خاصّة أنت لا بتهشّ ولا بتنشّ).

فرطنا بالضحك. نكزها من كتفها:

ـ قومي جهّزي لنا لقمة، أنا جعت.

رمت صنّارتيها وبمرحها المعتاد:

ـ (عارفة بدّك تطفشني حتى تسمع القصّة لحالك).

قلت برجاء:

ـ (أيْ والله يا ماري أنا محتاجة أن أتكلّم معه).

وهي تغادر إلى المطبخ:

ـ (إحكوا للصبح.. رح أحطّ الأكل وأنام وبكره دوري أسمع).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ليوسف عذوبة النبع بعد العطش، وأنا العطشى المخطوفة من أتون السعادة الجديدة، أتحدّث وهو يسمعني بكل حواسّه:

ـ وبعدها يا يوسف منذ أن عرفته وأنا متعبة وقلبي مرتجف اليدين.

ـ عليك أن تستعدّي للألم استعدادك للفرح.

ثم فاجأني:

ـ طبعًا ستخبرين عفاف.

فزعتْ:

ـ أخبرها؟ مستحيل.

ـ وأين المستحيل؟ أليس من حقّك أن تحبّي وتتزوّجي.

نفضتُ بكفّي:

ـ أعوذ بالله.

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

رغبات الجسد

ما أعتاها موجات الشوق، أوّل مرّة أحسّ بانتصابات القلب بعد ارتخائه، أوّل مرّة أجرّب كيف تدغدغ الأرجوحة الجسد حين يهبط من شاهق الحزن لبئر العسل. أوّل مرّة تدقّ بابي كفٌّ تحمل الزهور وتفرد مفارشها لموائد ما تذوّقتُ مثلها. وخلسةً فاجأني شعاع الشمس فما عُدت أرى غير الضياء. لماذا التلكّؤ؟ لماذا أهشّ العصفور الأخضر الذي جاء ليطعمني الحبوب؟ سأعيش. الحياة ليست فستقة فارغة. والأشجار حبلى بالثمار. والمراكب تعبّأت بالعطاشى لموج البحار. وصار للعمر معنى. سأعيش في حُجَر الأحلام الزاهية. لم تعد الأسفار تشدّني إلى المدن المتناثرة، صارت مدينته محطّ القلب الذي لا يهدأ والحلم الذي لا يبور.

يوم دعوته ليزور مدينتي ما كنتُ أتصوّرها رغم أمانها وحنانها لا تهب السعادة، اكتشفتُ أنّ الشوارع مكتظّة بالعيون المتلصّصة، وأضواؤها أصابع تخترق زجاج السيّارة كأنّها تشير لكلّ العيون (هنا يجلس عاشقان).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

للحُبّ رائحة شهيّة كالشواء تسلّط علينا الكلاب الجائعة. بحثتُ عن شارع مظلم كثيف الأشجار ففاجأتني وجوه العمّال والعاملات الآسيويّين الباحثين عن مُتنفّس لعواطفهم بعيدًا عن عيون رجال الأمن. حين سطا عليهم ضوء سيّارتي تراكضوا كالفئران خوفًا من المصائد. ذهبتُ إلى المطعم الصغير المُتكئ على خاصرة البحر، حلمتُ بجلسة شاعريّة، لكنّ البشر اتّحدوا ضدّي وملأوه. تبادلنا نظرات الخيبة.

السيّارة غرفة ضيّقة والمدينة بيتٌ بلا ستائر. شعر بحزني، امتدّت كفّه بحذر تلتقط كفي، همّس عليه كمن يُعزّيني وصوته خفيض:

ـ مدينتك جميلة.

حدّقت ببصري بكل اتّجاه. أردت أن أتأكّد إن كانت مدينتي جميلة حقًّا كما يقول. دموع قهري لم تكشف لي سوى العتمة والأشباح. خرج صوتي باكيًا:

ـ نعم جميلة. لكنّني الآن بالذات أراها بشعة.. بشع.. بشـ...

ألقيتُ رأسي على المِقوَد أنشج وأسئلة مخنوقة تصرخ في داخلي وتصبُّ ملحها فوق جرحي (ماذا أفعل بمدينة جميلة إن لم أحقّق فيها لحظة هانئة؟ لماذا لا ينتشر الحبّ كالعطر ويصير الناس فراشات تحوم بدوائر الضوء؟ لماذا يستعبدهم الخوف،

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ويحوّلهم جرذانًا تبحث عن جحور أو لصوص تبحث عن مخبأ؟) مدينتي المنقّبة لا تصلح للحبّ.

واصلتُ نشيجي وكفّه تضغط على كفّي. صوته العذب يخدّرني:

ـ في العالم مدنٌ كثيرة تفتح قلوبها للعشّاق. لم لا نتزوّج ونرتادها بحُرّيّة؟

رغم حاجتي لعرضه السخيّ، استأتُ من الفكرة:

ـ الحلم خارج أرضه يكون حلمًا لقيطًا.

احتدّ صوته:

ـ ما الذي يربطك هنا؟

اندفعت إليه بنظراتي الغاضبة. لم يمهلني. تنبّه لخطئِهِ استدرك:

ـ هل تتصوّرين حلمًا ينبت في أرض الخوف والبوار؟

صرخت:

ـ هذا البوار الذي تتحدّث عنه هو بلدي. أرضي ومهدي. ولن أنزع نفسي منه لأجل الحبّ.

تناثر أسفٌ على وجهه. شدّ على كفّي المرتعشة:

ـ لن أحرمك زيارتها كلّما رغبتِ.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ردّ قلبي الذي تسكن فيه لؤلؤته:

ـ وعفاف؟

ـ عفاف في عمّان وحين تتخرّج ستتزوّج وتتركك وحيدة.

بحثت عن حُجّة لا تُلزمني بقبول عرضه:

ـ ربّما ترفض فكرة زواجي.

ابتسم كأنّها بداية انتصاره:

ـ أنا متأكّد أنّها ستفرح وتوافق.

لم أردّ. واستدرتُ بوجهي المكلوم إلى النافذة.

أيّ رمل يذرّه لتعكّر حُبيباته الحارقة شغاف قلبي؟ هل جُنَّ أم هو واقعيّ إلى الحدّ الذي لا أحتمله؟ كيف يتصوّر أن أُخبر عفاف؟ يوسف أيضًا قال هذا.

هل جُنَّ الرجال؟ من أين للأبوّة أن تضاهي جلال الأمومة؟ كيف وأنا الأمّ المطرّزة بأمومتي، أواجه ابنتي وأعترف لها أنّ طوق صبري تكسّر وقلبي تحرّر وجسدي تفتّح فيه الحقل الأخضر؟ هل يُعقل أن أصارحها؟ وإن فعلت هل ستتفهّم إحساس الأمّ (الأنثى) التي شبعت صومًا وتوافق! أم تراها ستحدجني بالنظرة ذاتها التي حدجتُ بها أمّي!!

غِبْتُ عنه بأفكاري. كرِهَ صمتي. قال بلهجة ودودةٍ لا تخلو من رجاء:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ فكّري في الموضوع جدّيًا.. بعد مغادرتي قد تشتاقين إليّ وتغيّرين رأيك.

* * *

كأنّه كان واثقًا من حاجتي إليه. ما إن غادر حتى نغل الوله بقلبي. راوغني وجهه في المرايا، في الأوراق، في الأغنيات الموجعة، في الوسادة التي أنام عليها وحيدة وصليل الشوق كالجمرة يشويني. صرت كالمَسْبيّة محصورة بقلعته، اضطربت حياتي، فقدتُ استقراري وراحة بالي وعلاقتي بكل شيء حولي حتى أشيائي الصغيرة. كنت أشعر أنّ كل شيء فيّ يغادرني باحثًا عنه حتى رائحتي. وبدأت تداهمني في اللّيالي أحلام غريبة. أدركت أنّ الحبّ متاهة وقلّة راحة. لكنّه وَطِئَني. ودخل كالعفريت إلى جسدي واسْتقرّ. من تُراه يُسعف نزع قلبي غير يوسف؟ اتّصلت به وبادرته:

ـ أكاد أجنّ يا يوسف.

ـ الحبّ أحلى جنون.

ـ لن أكلّف قلبي إلاّ وسعه.

ـ قلبك بِكْرٌ يتّسع لكل غابات الحبّ.

ـ أريد أن أرتاح.

ـ سيكون عذاب الوحدة أشدّ.

ـ وعفاف؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ ستختار حياتها وتُغادرك ذات يوم. عيشي حياتك.

وتعاودني هواجسي التي تحثّني:

لِمَ لا أجرّب لذّة العيش قرب رجل أحبّه؟ إن كانت رشقة الحبّ الأولى قد حرّكت الزوابع في قلبي الساكن فأيقظته، فما الذي سيحدث للجسد المحروم حين يلامسه الجسد الآخر؟

أتعبني التفكير وكان عليّ أن أتّخذ قرارًا يُزيح الأكفان القابضة على عمري. إمّا أن أعيش الحبّ، أو أحْجُرَ حياتي لعفاف.

غلبني الحبّ! ولم يكن سهلاً أن أقاوم رغبات الجسد. وافقتُ على الزواج بشروطي. أن يبقى كلٌّ منّا في بلده ونلتقي في بلاد الله الواسعة، والأهمّ أن لا تعرف عفاف بزواجي.

هكذا صرنا عصافير مُهاجرة. صارت الغربة محطّاتنا، المدن المفتوحة شواطئنا، الفنادق بيوتنا وسريرنا. نلتقي فتفرح به كلّ حواسّي وتتفجّر لذّاتيَ المكبوتة بين ذراعيه. ما كنتُ أدري أنّ لي جسدًا من نور ونار، ولا حسبتُ زواج الحبّ يجيش بهذا الفيض من السعادة والمتعة. تأسّيت على سنواتي التي قضيتها مع زوج لا أرتعش بين يديه ولا أشهق. أردتُ أن أعوّض الجسد جوعه فنهلتُ بنهم دون شبع. لكنّي ما أكاد أتمرّغ بزهْوي بين ذراعيه حتى تأزف لحظة الوداع. أنتعل حزني وأغادره لأبقى مشنوقة بحبال انتظاري لموعدٍ جديد. اكتشفتُ أنّ دروب الحبّ، رغم امتلائها ولذّة غواياتها، محفوفة بالقلق

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

والخوف من صُدفةٍ تُفشي سرّنا الجميل. كنتُ أعود بعد كل رحلة ومشاعري طاغية بوجعها. أعود لواقعي المثقوب، ألتوي بوحدتي ووحشة فراشي. يقضمني الشوق. يلعق دمي. يقرقش عظامي. وتُعربد في جسدي الرّغبات العاوية فلا أقوى على ترويضه وإخراس ناره. لم يكن لي من ملاذٍ غير الكتابة فأفرّ إليها مثل لصٍّ يتوارى عن عيون مُطارديه.

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

موتُ المغنّية

غادرتُ عمّان آخر مرّة وأنا أحمل أطنانًا من الخوف على ماري. قلق يوسف يثير النُذر السوداء في عقلي. كانت تلاحقني حتى في أسفار الحبّ والسعادة. فلا أنقطع عن الاتّصال بها وبثّها شوقي والسّؤال عن صحّتها. مرّة هي بخير، ومرّات يداهمها التعب، لكنّها تظلّ على عنادها وترفض الذهاب إلى الطبيب. بدأت تنتابها حالات عصبيّة بسبب قلقنا عليها. لم أكتفِ باتّصالاتي بالهاتف فقرّرتُ السفر إليها.

بادرتني عفاف وهي تعانقني في المطار:

ـ ماما.. صايرة حلوة!

أدركتُ أنّ الحبّ لا يكتم سرّه، شجاع يُعلن أمره، ينشر عسله ومُرّه. رغم آثار السهر والشحوب إلاّ أنّه يرُشّ بروقه وبريقه. التقطتْ عفاف البريق: ماذا لو حدّثتها عن البرق والحريق؟ ماذا لو عرفتْ أنّي سمحتُ لآخر أن يُقاسمها قلبي ويحتلّ جسدي. هل أُخبرها بسرّي؟ أرعبني السؤال فحذفته من خاطري.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أعطتْ عفاف سائق التاكسي عنوان بيت يوسف وبشّرتني:

ـ (خالتو) ماري طبخت لك مجدّرة وبطاطا بكزبرة وفاصوليا بزيت. فرحي بعفاف لا يعادله إلاّ فرحي بلقائهما. حنان يوسف، حيويّة ماري الدائمة وخفّة ظلّها، بيتهما الذي صارت لي فيه غرفة وكأنّه قطعة من قلبيهما. وها هي كلّما جئت تطبخ لي أصناف الأكل التي أحبّها.

فتح يوسف الباب. لم تكن ماري معه كعادتها. غصَصْتُ بخوفي:

ـ أين ماري؟

ـ في غرفة النوم.

أسرعتُ إليها. كانت بعجالة تسوّي غطاء السرير:

ـ نايمة؟

ـ (شويّة ريلاكس. الله يهدّه هالروماتيزم بيلازمني صيف وشتا).

ـ كتفك؟

ـ (ومين غيره؟ متل العادة).

ـ يا ماري أرجوك لازم تشوفي طبيب.

قاطعتني وهي تشدّني إلى الصالون:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ (لا تفلقي قلبي متل يوسف. يضربوا الأطبّا شو بكرهم).

ـ بسّ يا ماري...

ـ (بلا بسّ. بلا بطيخ ما فيني شي هيني متل القردة قدّامك).

همس يوسف:

ـ يخرب بيتك شو عنيدة.

همسته لا تخلو من قلق يتسرّب إليّ وينغّص راحتي.

* * *

في المساء دعاني يوسف وماري للعشاء في ملهى يقدّم برنامجًا منوّعًا ويختمه بوصلات من الغناء الشرقي القديم. كارين، وعفاف التي أخذت إجازة من سكن الجامعة لتبقى معي، فضّلتا البقاء في البيت وتمنّتا لنا ليلة سعيدة.

الملهى راق وجميل. كان في الأصل قصرًا لأحد الأثرياء وكانت له زوجتان. حين مات دبَّ الشقاق بين ورثته فباعوا القصر وحوّله المالك الجديد إلى ملهى لا يؤمُّه سوى الطبقة الراقية أو مُحدَثي النعمة.

قادنا الجرسون إلى الطاولة التي حجزها يوسف بعيدة عن البيست حسب رغبتي. ما إن جلسنا حتى تسارع النوادل بصفّ المقبّلات. وما كدنا نبدأ حتى بدأت حركة الفرقة الموسيقيّة وهم يُرتّبون أماكنهم، يصُفّون آلاتهم، يُدَوْزنون أوتارها وهم

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

يتهامسون ويبتسمون. أحدهم يُرتّب وضع (البيبون) الذي يكاد يخنقه وآخر يسوّي شعره الشائب بأصابعه الرفيعة.

مثل قنبلة موقوتة انفجر صوت الموسيقى فصرختْ:

ـ يا ساتر.

نفختْ ماري وهي تضغط على أذنيها:

ـ (العمى! مثل كأنّو نار ولّعت فيها).

كنتُ قد فتحت حقيبتي واستللت منها القطن. قدّمته لماري:

ـ خذي. أنا أحمله معي دائمًا في السهرات لأحمي أذنيّ من تلوّث الأصوات.

عبرت ليلة غسول أمّي أمامي وذلك القطن الذي حشَتْ به الغاسلة فجوات جسدها كلّه. كادت رياح الماضي أن تشفطني لولا أن جاء صوت يوسف عاليًا ومتلمّرًا:

ـ لا أدري لماذا يرفعون الصوت وكأنّهم يعزفون لطرشان.

بعد انتهاء موسيقى الافتتاح، غنّى المطرب الشابّ الذي بالغ في هندسة مظهره وتسريحة شعره. لم يكن صوته جميلاً. استراحة قصيرة ثم أعلن مقدّم البرنامج عن وصلة أخرى لمطربة جديدة.

دخلت بقامتها المربوعة ووجهها الجميل ترتدي فستانًا من الساتان الكحلي وقد حشرت جسدها فيه حشرًا. برز صدرها

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

متحدّيًا فتحة الفستان. شعرها الأشقر المنساب على كتفيها يلتمع في طرفيه دبّوسان فضّيان على شكل فراشة. أمسكتْ بالميكروفون وانحنت بتحيّةٍ سريعةٍ ثم رفعت ذراعيها في كل الاتّجاهات بمزيد من التّحايا فبان إبطاها أبيضين لامعين.

استدارت نحو الفرقة لتعطيهم إشارة البدء ثم اندفع صوتها وكأنّ بوقًا زُرِعَ في حنجرتها. صوتٌ خال من رنّةٍ أنثويّة فاقشعرّتْ آذاننا. أشار يوسف للجرسون:

ـ ما هذه المطربة؟

ضحك ببلاهة:

ـ هذه مجرّد وصلة خفيفة قبل أن يبدأ فنّان السهرة المشهور.

علّق يوسف:

ـ ويلنا إذن من الوصلات الثقيلة.

كانت أغنيتها الأخيرة فاشلة. لكنّ اللّحن الجميل جعل يوسف ينتشي ويصفّق. التفتُّ إلى ماري:

ـ يوسف يصفّق نشوان. لماذا لا تصفّقين؟

ـ (كتفي عَمْ يوجعني، خلّيه يصفّق عنّي وعنه).

ـ جميل أنّه تخلّى عن جدّيّته. والله يليق به المرح.

ـ (هلّأ اتطوّر. لو شفتيه زمان).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ سنوات زواجكما الأولى؟

ـ (لأ . . قبل ما نتجوّز. يا لطيف).

ـ تبدو صعبة!!

ـ (صعبة وظريفة. ما كان بيحبّ السهر بس هديك الليلة حكايتها حكاية).

لكزتُ يوسف بكوعي:

ـ ماري تقول إنّ لك حكاية مع السهر.

مطّ جسده نحو ماري:

ـ أيّ حكاية فيهم؟ الحكايات كثيرة.

هفّتْ بكفّيها على وجهها كمن تجفّف عرق الذكرى:

ـ (هديك السهرة اللّي نطقت فيها).

انفجرَ ضاحكًا. اهتزّ شارباه فأمسك بهما كمن يخشى أن ينفصلا عن وجهه ودبّ بكفّه على كفّي:

ـ اسمعي الحكاية. ستضحكين من قلبك.

استدار ليتابع الراقصين والراقصات الذين امتلأت بهم مساحة (البيست). التفتُّ إلى ماري:

ـ هاتي أضحكيني.

استعدّت ماري، اقتربت منّي أكثر ليصلني صوتها:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

(أهلي، فترة الخطوبة، كانوا محاصرينا خاصّة إنّهم ما كانوا مرتاحين لزواجي من يوسف زي ما خبّرتك برسالتي، كنت أتشوّق أسمع منه كلمة غزل أو حبّ قلت يمكن بيخجل من أهله وأهلي. اتحمّلت والله فرجها يوم دعانا أصحابه لسهرة متل هاي. كنّا قاعدين مبسوطين نغنّي ونصفّق وهات يا تنكيت على صوت المطرب والناس اللّي بترقص وهو قاعد هادي يجامل بابتسامة باردة. قاموا للرقص وطلبوا منه أن يراقصني فاعتذر. ولمّا ألحّوا عليه تدخّلت لأنّي كنت متمنّية يبعدوا عنّا بلكي لو صرنا لحالنا ينطق. شو فرحت لمّا سحب كرسيّه وقرّب منّي وصار يتأمّلني. قلت حركة بتبشّر بالخير، استعدّيت للمفاجأة صار وشّي متل جمرة لمّا قال: بتعرفي يا ماري؟ حسّيت أنّ العقدة انحلّت. كمّل كلامه: بعض الناس يسكرون من الخمرة، وبعضهم من الموسيقى والغناء، وبعضهم يسكرون من الفرح، أمّا أنا! هون صار قلبي يتحرْقص وتعلّقت بشفافه. أكيد بدّو يقول إنّه بيسكر من لون عيوني، من بياض وشّي، من حلاوة شفافي و...).

قاطعتها:

ـ ها.. ونطق أخيرًا؟

تحسّرتْ:

ـ (نطق.. ويا ريته ما نطق).

أفرطتُ بالضحك متوقّعة نكتة. تنهّدت ماري بخيبة أملها:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ (تصوّري حكّ عيونه وقال بمنتهى البرود: أنا أسكر من رائحة الدخان).

لم أملك السيطرة على نفسي. تطايرت ضحكتي فالتفتَ يوسف يشارك بالضحك وقد أدرك أنّ ماري وصلت نهاية الحكاية. تدخّل شارحًا لي وما يزال يضحك:

ـ يومها تصوّرتني سأقول لها إنّني أسكر من عطرها، من شفتيها، لكنّني صدمتها. ومن يومها لا تنسى هذه الحكاية.

لامسني شعور بالشفقة على ماري فعلّقتْ:

ـ بصراحة! هذه حكاية صعبة لا تُنسى. كيف هكذا خيّبت أملها من أوّل سهرة؟

قالت ماري بظلال حسرتها القديمة:

ـ (الله وكيلك ظلّ يخيّب أملي بكلّ السهرات. زيّ ما أنتِ شايفة لا بيشرب لا بيرقص ولا...)

قاطعتها بخبث:

ـ لكنّه يصفّق جيّدًا.

تغامزنا عليه وقلت:

ـ عندنا مثل كويتي يقول (كل البعارين ترعى وترتعي، إلاّ بعير حارك بارك).

أشار يوسف بسبّابته إلى صدره:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ وأنا هذا البعير الـ. . .

تضاحكنا ثلاثتنا بصوت عال لفت الأنظار. فقد أنهت المطربة وصلتها دون أن نحسّ، بها لكنّنا صفّقنا لها إلاّ يوسف الذي حدجنا بنظرة اتّهام:

ـ تُصفّقان لها رغم عدم إعجابكما بصوتها.

قالت ماري:

ـ (إحنا صفّقنا فرحانين لأنّها خلصت).

كان الجرسون في تلك اللحظة يرفع أطباق المُقبّلات التي فرغت ويرصّ أطباق الطعام التي اخترناها، ومقدّم الحفل يعلن عن وصلة المطرب المشهور. سألت الجرسون:

ـ هل صوت المطرب أنثويّ؟

استغرب السؤال فتابعتُ:

ـ لأنّ صوت مطربتكم ذكوريّ.

ضحك وقال:

ـ لا أحد يحبّ صوتها. لذلك أنهوا عقدها. هذه ليلتها الأخيرة هنا.

انكمشتْ ابتسامتي. شعرتُ فجأة بشيء يعتصر قلبي لم يبدّده صوت المطرب الذي صدح جميلاً وتجاوب معه الجمهور. لكنّني انزويت بذهني أفكّر بالمطربة وأتجوّل بنظراتي في المكان

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الذي يشهد ليلتها الأخيرة. بعد قليل رأيتها مقبلة وقد أبدلت ملابسها الصاخبة ببنطلون جينز وبلوزة ورديّة فضفاضة، خلا وجهها من المساحيق وأبقت على روج خفيف. تابعتها حتى اختارت طاولة صغيرة خلف عمود عريض وجلست كأنّها تريد أن تحتمي به من العيون. أرخت رأسها بين كفّيها. شدّت عليه كمن تعاني من صداع ثقيل. أشعلت سيجارة وأشارت للجرسون الذي اقترب دون استعجال ليأخذ طلبها. وعاد يتابع حركته بين الطاولات.

ظلّت عيناي تتابعانها. أحضر لها الجرسون كأسًا من النبيذ الأحمر. تصوّرتُ أنّ زبونًا عاشقًا تبرّع لها به أو أنّ صاحب المطعم أراد أن يتكرّم ويمنحها الكأس الأخيرة.

بدا وجه المطربة شاحبًا حزينًا وجسدها مُثقلاً، بعكس ما كانت عليه فوق البيست تغنّي وتتحرّك كالفراشة. وحيدة هي الآن، منسيّة، منزوعة من عالم التألّق إلى الخفوت. مات شعاع عينيها وانهزم فرحها.. هل تفكّر أين ستكون غدًا؟ في أيّ ملهى؟ في حضن من؟ أو ربّما في قبر يدفن صوتها غير الموهوب؟ هل سترافق آخر الليل أحد الزبائن المعجبين بصدرها وبياضها حيث المباح وغير المباح؟

لم يبق لها الليلة غير كأس وانتظار وحزن وموت مرتقب بعد أن ملأت لياليها بالطرب والصخب. أحسَسْتُ بالشفقة عليها وتمنّيت لو أدعوها إلى طاولتنا لأُشعرها أنّ الدنيا ما تزال

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بخير. وددتُ لو أتحدّث إليها لأعرف شعورها بعد انتهاء عقدها وأستمع لحكاية عمرها وطفولتها، هل كانت لها أمٌ تخلّت عنها فاندفعت لهذا الطريق العابق بأنفاس الليالي الحمراء، لتنتهي إلى اللحظة التي تكون فيها وحيدة حزينة يتصدّق عليها أحدهم بكأس.

ظللتُ أركّز عينيّ عليها، أحزن لوحدتها التي ذكّرتني بوحدتي القديمة بعد موت كل الذين أحببتهم. كنت أحسُّ كيف تكون الوحدة قاسية، فهي في أحيان كثيرة تكون شكلاً من أشكال الموت البطيء. ولو لم أكن قد اتّخذتُ قراري أن أتابع حياتي وأحقّق مشروعي في الكتابة لكنتُ الآن في وضع (نساء الكهف) المُستسلمات لواقعهنّ المُرّ.

همستُ لماري:

ـ انظري لهذه المسكينة كيف تحوّلت فجأة إلى هشيم.

بلا مبالاة قالت ماري:

ـ (يعني كان لازم تكون فنّانة؟ هدول حياتهم مَرّة فوق ومَرّة تحت).

لم يعجبني ردّ ماري التي نظرتْ إليها من الزاوية الضيّقة وتجاهلتْ كيانها الإنساني.

لم أستطع أن أسلخ نفسي عن التفكير بمصير المغنّية. أحسَسْتُ بالمكان الصاخب يتحوّل إلى كهفٍ معتم. كل شيء

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

فيه يموت، الأضواء، الموسيقى، صوت المطرب، ضحك الناس وتصفيقهم وأجسادهم المرتاحة. كل شيء يذوب فلا أرى أمامي سوى هياكل عظميّة تفزع من مكامنها وتطير بخفّةٍ نحو الأعلى باحثة عن خلاص فتصطدم بالسّقف الحجري وتسقط بفرقعاتها لتتفكّك أطرافها وتتناثر على الأرض وفوق الطاولات، فلا أرى سوى جماجم مفقوءة العيون فاغرة الأفواه.

* * *

تلمّست جسدي؛ أحسَسْته تحوّل إلى هيكل عظمي أجوف. قمتُ من مكاني. مشيتُ بخفّة بين الطاولات وأنا أسمع لوقع أقدامي العظميّة قرقعة وكأنّني أدوس على حصى وزجاج. بدأتُ ألتقط الجماجم واحدة تلو الأخرى وأتأمّلها. بعضها يشي بوجوه أصحابها المتجهّمين وبعضها كمن فاجأه الموت وهو يضحك. تسلّلتُ إلى طاولة التمَعَ عليها وجهٌ حبيبٌ لا تُخطئه عيناي. هو وجه أبي. بحذر رفعته. قبّلته وطعم العظام يُريق ملوحته فوق شفتيّ. همستُ في فراغ الأذن (أبي كم اشتاقك). أعَدْتهُ بلطفٍ إلى مكانه وتفرّستُ بالجماجم الأخرى باحثة عن وجه أمّي الذي لم أودّعه إلاّ ميتًا. لمحته، ركضتُ إليه، شددته إلى صدري، بكيتُ وصوتي ينفخ في تجويف أذنها (أمّي، ليتك تعودين). سمعتُ صوتها المُشبع بالراحة (ولِمَ أعود؟ الموت رحمة وسكينة، هل أدعوكِ إليه؟). صرختُ (لا.. لا أريده، لا أريد كفنًا ولا كافورًا ولا ترابًا). اكفهرّت

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

جمجمة أمّي. عاتبتني (هذه سُنّة الله ورسوله. ما أشهى أن تحضنكِ الأرض! أن يرتاح جسدكِ بين التراب والتراب! ستُحسّين القبر يتّسع وينشقّ كالفجر. تعبرين منه إلى جنّة خضراء). صوت أمّي الرخيم يتناثر نقاطًا من ماء زمزم فوق وجنتيّ. قبّلته وأعدْتُهُ إلى مكانه وشبه ابتسامة مرتاحة ترتسم في فكّيه. أردت أن أخرج من الكهف الحالك لكنّ قبورًا انفتحت أمامي بعد أن تكسّرت شواهدها التي تحمل أسماء أصحابها. خرجوا أمامي هياكل تندلع من أفواهها ألسنة لهب، صرخات استغاثة، كلمات هَبائيّة وصلوات غير منتظمة لكنّها خاشعة تثير القشعريرة. لمحتُ جمجمة مضيئة. هرعتُ إليها وغرستُ نظراتي فإذا هي وجه ماري. قبّلته وهربت.

حين استفقت من غيبوبتي كان كل شيء كما تركته. الأضواء، الساهرون، المغنّية الحزينة، وجه يوسف وماري التي كانت تضغط على كتفها وتتأوّه. حضنتها:

ـ الألم نفسه؟

بان التعب واضحًا في صوتها:

ـ (ابتدى يزيد).

ـ نقوم؟

برجاء واضح:

ـ (ما بدّي أفسد عليكم السهرة).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ (طزّ) بـ السهرة.

التفتُّ إلى يوسف:

ـ الأفضل أن نغادر.

رفضتْ ماري. نظر إليها يوسف قلقًا، ابتسمتْ له وهمستْ:

ـ (ما فيني شي هلّأ برجع متل الحصان).

ولتثبت أنّها كالحصان أخذت تصفّق بحرارة بينما استلّ يوسف مشطه الصغير وسوّى به خصلات شعره. مالت عليّ ماري وهمست:

ـ (هادا المشط بينرفزني).

استغربتُ فواصلتْ:

ـ (قديم وكحيان. أكتر من مرّة فكّرت أكسره وأرميه لكنّه بيخبّيه عنّي).

ـ وما سرّ حرصه عليه؟

ـ (بيقول إنّه اتمشّط فيه ليلة زواجنا وبدّو يحافظ عليه وأنا ما بطيقه).

نظرتُ ليوسف بإعجاب وقدّرتُ وفاءه. مُؤكّدة لماري:

ـ هذا يعني أنّه يعتزّ بالمشط وبتلك الليلة. وفاء نادر لا تجدين مثله هذه الأيّام.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

حين خرجنا من الملهى، لفحنا هواء الفجر البارد. رأيت يوسف يسارع إلى ماري يعدّل وضع الشال على كتفيها ثم يخلع جاكيتته ويدثّرها بها فاعترضتْ خشية أن يؤذيه البرد لكنّه أصرّ أن يغمرها الدفء. في تلك الليلة تضاعف حبّي وإعجابي بهما.

عدنا إلى البيت. كانت عفاف وكارين نائمتين. استأذنتْ ماري أن تنام ويوسف يلاحقها بصوته أن تأخذ حبّة بنادول. بقيتُ معه في الصالة نتحدّث. كان متشوّقًا ليسمع منّي أخبار الزواج والرحلات والحبّ، وأصرّ أن تعرف عفاف:

ـ هي أعطتك الفرصة حين قالت إنّك صايرة حلوة. إذن قولي لها سرّ الحلاوة.

ـ لا يمكن يا يوسف.

في الصباح وأنا أودّعهما، انفردتُ بيوسف:

ـ أرجوك انتبه لماري هذا الـ. . .

ـ لا تقلقي. بعد يومين سآخذها إلى بيروت، وضعها يقلقني لكنّها عنيدة وتكابر.

لأخفّف عنه وربّما عن نفسي:

ـ (يمكن روماتيزم ويمكن من حياكة الصوف).

عقد بين حاجبيه:

ـ ويمكن. . .

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ارتعبتْ:

ـ يمكن ماذا؟ أرجوك لا تخيفني.

أسرع وغيّر الموضوع:

ـ ما رأيك إذا رحنا إلى بيروت تلحقين بنا؟

قلت:

ـ سأحاول.

• • •

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

عذابات ماري

مضت ثلاثة أيّام وأنا أشبه بفتيل مشتعل، لم أحتمل ناري وانتظاري، اتّصلت بيوسف في بيروت لأستفسر منه عن نتائج الفحوصات. جاء صوته متوتّرًا:

ـ الفحوصات الأولى جيّدة وننتظر نتائج زراعة الفحوصات الأخرى. سأطمئنك عنها.

لكنّه زرعني بلوعة انتظار أشدّ ثقلاً. لم يتّصل، وجه ماري لا يفارقني، أراه حتى في كوب الحليب الذي أشربه في الصباح فينزلق إلى جوفي كالعلقم. الوساوس لا ترحمني، تتشابك خيوطها فأجنح إلى تخمينات لمرضها الحقيقي؟ روماتيزم، قرحة في المعدة، تعب في القلب، أو...! حين يصل تفكيري إلى ما أحاول إبعاده عن مجمل تخميناتي أشعر أنّ الدنيا تحصرني بين حائطين، تضغط وتضغط حتى يتساوى لحمي بإسمنت الجدار ويتطاشر دمي بلونه المحتقن بالسواد من شدّة حزني. أطلب يوسف وأصرخ به:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ لماذا لا تتّصل؟ أنا أكاد أجنّ.

أحاول أن أستلّ منه إجابة شافية، أن أحلّل نبرات صوته لأعرف إن كان يخفي عنّي شيئًا، يحاول أن يبدو هادئًا لكنّني ألتقط من ذبذبات الصوت ما يُخيف. قال إنّ الطبيب نصح ببقائها في المستشفى أسبوعين لتبدأ العلاج. صرخت بسوطِ صوتي:

ـ لماذا هذا (المطّ) في الكلام؟ أرجوك قلْ الحقيقة وسأحتملها.

صمت برهة وأذني تلتقط ارتجاف دموعه قبل أن يصفعني بالخبر:

ـ ماري مصابة بالسرطان.

تكوّرتْ الدنيا كلها أمام عينيّ مثل كرةٍ سوداء حذفتها قدمُ لاعبٍ حاذق ليكون قلبي (الجول) الذي تدخل إليه بكل عنفها. أطلقتُ صرخات الألم و... سقطت سمّاعة الهاتف.

أغرقتني دموعي، أحشائي كلها تتقطّع وقلبي يتعاصف. أحسّه مثل فأر يتجوّل تحت جلدي حتى يصل أطراف قدميّ ويخرج من جسدي مُستلاً روحي معه. كيف أصدّق وكيف سأحتمل!؟ أيّ شجاعة ستؤاتيني لأتّصل وأكلّمها؟ ماذا سأقول؟ أيّ صوت قوي سأمتلكه لأبدو بعيدة عن أيّ مواساة تُشعرها بأنّني أعزّيها وهي بعد حيّة؟ آه يا ماري.. لماذا أنتِ؟ ما الذي

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أغرى هذا الغول ليهاجم جسدكِ الناعم وروحكِ البهيجة؟ لماذا لم يجد له مقرًّا في أجساد الأشرار والقابعين على الكراسي يستبدّون بشعوبهم المظلومة؟

عاودتُ الاتّصال بيوسف في المساء. كان سؤالي يزحف إليه متردّدًا:

ـ هل عرفتْ ماري سرّ مرضها؟

أطلق نهدة طويلة:

ـ لا بدّ أن تعرف، تولّى الطبيب هذه المهمّة الصعبة.

يا وجعي عليك يا ماري:

ـ وكيف ت...

قاطعني وصوته يحاول انتشالي من زحمة حزني:

ـ الغريب أنّها تقبّلت الأمر بهدوء شديد فاجأني. وحلفتْ يمينًا أنّها ستصارعه قبل أن يصرعها.

هل صدّقها ويريدني أن أصدّقه؟ هل ماري الناعمة الرقيقة قادرة أن تُصارع؟ هو حلم الغريق، وأمل اليائس، ومرارة الموعود بالمجهول.

صوت يوسف يشجّعني:

ـ كلّميها وستعرفين بطولتها.

البطولة ليست غريبة على ماري التي خاضت النضال

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وأصيبتْ. لكنّ حرب السلاح أهوَن من الحرب مع هذا المرض. كيف ستناضل لتحتمل أوجاعه؟

عانيت من ارتجافي وارتعاد قلبي قبل أن أتّصل بها، حاولتُ أن أكون شجاعة. قاومتُ لأشحن صوتي برقّةٍ لا تؤذيها:

ـ حبيبتي ما.. ري، كنت أ...

قاطعتني مُداعبة:

ـ (يقصف عمرك يا الملعونة. ضلّيتي تتمنّي السرطان، خاف منك وإجه صوبي. قدّيش كنت متمنّية أموت وأنا نايمة).

وانطلقتْ بضحكة من نفسٍ رغم ابتلائها لم تخْلُ من حيويّتها المعتادة:

ـ (بسّ ما تخافي وحياة العدرا بدّي ألعن أبوه وأطفّشه).

اختنق صوتي، نكس قلبي رأسه مثل عصفورة هوى فرخها. تلمّست لها العذر وهي تحاول أن تدّعي الشجاعة، وكنْ أخفّف عنها وأشدّ أزرها:

ـ أعرفك.. بطلة وستقضين عليه.

هبطت نبرة صوتها وغيّرت مسار الكلام عن المرض:

ـ (إمتى رح أشوفك؟ بدّي ايّاكي تجي عبيروت حتى تزوري العدرا معي).

أغلقتُ السمّاعة وكانت الشمس تغلق شبابيكها في وجهي. شبابيك عينيّ وحدها مفتوحة تصبُّ أمطارها.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

عشرة أيّام مضت وأنا غير قادرة على اتّخاذ قراري بالسفر رغم إلحاحها. آخر مرّة جاءني صوتها حزينًا:

ـ (تأخّرتِ كتير. صار لازم نرجع لعمّان. تعبانة ومش قادرة حتى أزور العذرا).

* * *

حين تكبر مساحة الحزن.. تضيق مساحة الحبّ. لم يعد القلب طروبًا ولا الجسد توّاقًا. وزْنة حزني الطاحنة على ماري شغلتني عن التفكير بالحبيب. تباعدتْ بيننا الاتّصالات. لم تعد رنّة صوته توقظ عصافيري، صوت ماري وحده يُفزِعُ العصافير وينشرُ نعيق غربان جائعة. انطفأتْ رغبة السفر إليه، صارت كل الأسفار إلى ماري. غاب وجهه عن أحلامي وظلّ وجه ماري المُكفهرّ يلاحقني بكوابيسه. صارت وحدها شاغلتي ومُعذّبتي. وكفّة ميزاني تنحاز إليها. هل أظلّ مُعلّقة بحبال الهواء وأنا أتمزّق بين الحبّ وبين ماري؟ صعب أن أتخلّى عنها وهي في محنتها وصعب أن أخرج من جنّة الحبيب التي سكنتها وتذوّقتُ أشهى طعومها.

هل أكون أنانيّة للحدّ الذي أحرمه أن يعيش حياته؟ كيف أعلّقه بحياتي التي عرّشت عليها دوالي الكآبة والحزن؟ فكّرت بالانفصال. وقرّرتُ أن أصارحه.

رتّبتُ أفكاري. حشدتُ كل ما أملكه من عبارات رقيقة تكفل لي النجاح بإقناعه، جاءني صوته فَزِعًا وقلبه يلهث:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ لماذا تريدين وأدَ الحبّ الجميل؟

ماذا أقول؟ هو لا يتخيّل عذاب الانشطار بين الحزن والحبّ. استجمعتُ زمام نفسي. استطعتُ أن أنطق:

ـ للحبّ حالاته الجميلة. وله أيضًا حالاته الطارئة. ماري اليوم قبل قلبي.

تحدّاني صوته:

ـ أنتِ اليوم أكثر حاجة للحبّ.

ـ وماري بحاجة إليّ.

ـ كوني واقعيّة يا حبيبتي.. ماري ستموت.

حصىً مُسنّنة ثقيلة هوى بها عليّ. قلتُ أستعطفه:

ـ ألا تحسّني فقدتُ شهيّتي للحبّ؟

ـ وأنتِ.. ألا ترين بأنّني أصبر وأقدّر وضعك؟

تردّدتُ قبل أن أنطق:

ـ لماذا أعلّقكَ بي؟ طلّقني.

انتفض صوته:

ـ ولماذا الطلاق؟ بعد أن تموت ماري ستعود حالتك الأولى ونعيش حياتنا.

ـ بعد موتها سيتضاعف حزني وستنقبض روحي عن الحبّ.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ لا تخافي. سأحتوي حزنك وأوجاعك وأعيدك لجنّته.

همستُ بكلّ إحساسي:

ـ آه... كم أحبّك!

وأغلقتُ الخط.

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لقاءُ ماري

أجفلُ حين أتخيّل لحظة لقائي بماري. يوسف قال إنّها فقدت نصف وزنها وبدأت آثار العلاج تبدو على وجهها وشعرها، كنت أعدّ نفسي للّحظة الصعبة.

سافرت إلى عمّان. وتوجّهتُ فورًا إلى بيت ماري. وقفتُ عند الباب، أريد أن أقرع لكن كفّي مشلولة ودموعي كالماء الآسن محقونة في عينيّ، تحاملتُ وضغطتُ على الجرس، شعرتُ رنينه كالنواح. فتح يوسف. اغتلَتْ وجهه دهشة المفاجأة، أسقطتُ ثقلي على صدره فشدّ عليّ قاصدًا أن يمنحني بعض قوّته. سِرْتُ بقدمين مهزوزتين وقلب اشتعلت فيه المطارق. هتف بصوته قبل أن نصل غرفة النوم:

ـ أين عفاف؟

ـ لم أخبرها بمجيئي، أرجوك اتّصل بها.

أمسك بكفّي يسحب ثقل روحي وصاح ببشارته:

ـ إحزري يا ماري من الذي طرق الباب.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

جاءني صوتها الناعم واهنًا وواثقًا:

ـ (مين غيرها؟ أكيد لبنى).

دخلت...

هل هي حقًّا ماري من أراها أمامي؟ أم هي تلك الجمجمة التي حملتها في رحلتي الغريبة داخل الكهف؟ أين هالتها المضيئة؟ أين ذلك الجسد المُتعالي والوجه المستدير بلون الحليب؟ كانت غاطسة بالفراش كحمامة منتوفة. ترهّل الوجه وبدا صغيرًا شاحبًا. تقوقعت العينان الواسعتان. كانت ترتدي قميص نوم أبيض مُحلّى صدره بكشاكش الدانتيلاّ تُحيط بأطرافه شرائط بنفسجيّة. رأسها مغطى بطاقيّةٍ حريريّة بالكشاكش والألوان نفسها. حين لمحتني فتحت ذراعين هزيلتين وبابتسامة عريضة واهنة:

ـ (ميت أهلاً وسهلاً. شو ها المفاجأة الرّائعة؟)

سبقني قلبي طائرًا يحتضن بقاياها الذائبة. ونحن نتحاضن جاءني صوتها حنونًا:

ـ (إوعي تتمنّي هالمرض، ما بدّي ياكي تدوقيه تمنّي تموتي فجأة زيّ ما كنت أنا بتمنّى).

أبعدتني عنها، شدّت طاقية رأسها فهالني المنظر، شعرها الأسود الغزير مجرّد شعيرات متناثرة على صَلَع سكنته البقع البنيّة. قالت وهي تطرق على رأسها:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ (شوفي.. السرطان ما رح يرحم حتى منابت شعرك). وهرست خدّيها (شوفي.. صاروا متل التفاح المخمّج). وأشارت لشفتيها (شوفي.. يبعت له حمّى، حتى شفافي اللي متل الكرز أكلها). وأشارت لعينيها (هادي عيون ماري اللي بتعرفيها؟).

بكت بحرارة ثم ابتلعت دموعها وصوتها يفيض ألمًا:

ـ (عَمْ بحسّ كأنّي قطعة سكّر منقوعة بميّة مالحة، عَمْ بدوب على مهلي، مرض، الله يبعده عنّك).

لم أتمالك نفسي.. أجهشتُ وهي تُربّتُ على يدي بكفّها الساخنة:

ـ (نفسي أشوف إمّي وابني الياس قبل ما أموت).

نظرتي ليوسف ملأى بالعتاب سريعًا ردّ التهمة عنه:

ـ (ولاد الكلب اليهود مش سامحين إلها تطلع. والياس رح يجي هاليومين).

وصلت كارين، ارتمتْ عليّ، ناحت وبصوت خفيض همستْ بأذني:

ـ (شفتِ كيف صارت الماما؟).

قبّلتها وارتشفتُ طعم حزنها.

وصلت عفاف. اندفعت إلى حضني قطّة جائعة. غمرتها بشوقي كله.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أطلقتْ ماري صرخة ألم فاجأتها. تسارعنا كلّنا إلى سريرها وغلبنا البكاء. فاح رجاؤها:

ـ (لا تبكوا قدّامي وفّروا دموعكم ليوم الدّفن).

طلبتْ أن أجلس بجانبها. شدّت على يدي وهمست:

ـ (ما قدرت أزور العدرا، أوعديني تروحي عبيروت وتزوريها بدالي وتصلّي عنّي).

هل أترك أمنيتها معلّقة؟ كنت مستعدّة أن أفعل كل شيء لأجلها، أريدها أن تودّع الدنيا وهي مرتاحة. مسحت على جبينها المتعرّق وأكّدت:

ـ (وحياتك) غدًا أسافر.. سأشعل لكِ الشموع وأصلّي لكي تعيشي.

تأوّهت:

ـ (المرض أكلني أكل. وين بعد في حياة؟).

بكيت... ماري لم تبكِ. رفعت بكفّها الناحلة وجهي القريب منها ومسحتْ دموعي:

ـ (أكيد رح تحزني عليّ).

دفنتها في صدري:

ـ أرجوك يا ماري، لا تعذّبي نفسك وتعذّبيني.

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

طِرْتُ من عمّان إلى بيروت ووجه ماري يسكنني. من نافذة الطائرة كنت أنظر إلى السماء المُمتدّة بلا نهاية، وكلّما لمحت غيمة مفتوحة كقلب وردة، أو غيمة كصفحة دفتر تخيّلتها قبرًا لماري فيهمس قلبي إلى الله أن يرحمها ويُؤويها جنّته مع المؤمنين.

لم أكن أحمل سوى حقيبة يدي، توجّهتُ فورًا من المطار إلى (حريصا). اليوم هو الأحد والمكان مزدحم بمن جاؤوا ليُصلّوا وينذروا ويتناولوا (خبزهم كفاف يومهم). تراتيل الصلاة المُنبعثة من الكنيسة تنساب إلى عمقي وتُشيع الأمان. رفعتُ رأسي إلى تمثال السيّدة مريم المُعانق الغيم: (يا سيّدة النساء يا مريم عليك السلام). دنوتُ إلى المكان الذي تُشعَل عنده الشموع. قرأتُ على اللوحة الأولى (أهْدِ ابتسامة مُفعمة بالنور لكل مريض ومتألّم وحزين تلتقيه في دربك. أعْطِ الفقير قبل عونك ومالك حبّك واحترامك، أي قلبك. لا تسمح بأن يأتيك أحدٌ ويذهب بدون أن تكون قد أخذتَ أوجاعه وأعطيته فرحك). اتّجهتُ إلى اللوحة الأخرى وقرأتُ (لا ترحل من دون أن تتبدّل. انزع عنك الأوجاع والأحزان والبس النور والحبّ والرجاء. تعلّم أن تتلمّس حضور الله في حياتك. وأن تكون التعبير الصادق عن حنانه. ازرع النقاء في قلبك فينعكس على وجهك وفي عينيك). وقفتُ أمام هذه الكلمات الداعية كلها إلى الخير والمحبّة ونقاء النفس والقلب وتساءلت: هل من

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

يدعو لكل هذا ويؤمن به لا يدخل الجنّة التي عرضها السموات والأرض؟

أشعلتُ الشموع لأجل ماري. وصلّيتُ صلاتهم لأجلها كما وعدتها: (السلام عليك يا مريم يا ممتلئة نعمة الربّ معك مُباركة أنت في النساء ومباركة ثمرة بطنك سيّدنا عيسى المسيح. يا قدّيسة مريم صلّي لأجلنا نحن الخطأة الآن وفي ساعة موتنا آمين). اتّجهت نحو الكنيسة، دخلتُ فإذا بها مكتظّة بالمصلّين، استمعتُ إلى التراتيل وأنا أواصل الدعاء لماري.

عُدتُ إلى عمّان في المساء. ما كادت تراني حتى ازدهر وجهها:

ـ (حتّيت بصلاتك وغفيت مرتاحة).

بقيتُ إلى جوارها أسبوعين شهدتُ خلالها تحوّلاتها والتقمتُ أنين أوجاعها، وحين تحسّنت حالتها قرّرتُ السفر. عانقتها وأكّدتُ لها أنّني لن أغيب كثيرًا فمازحتني:

ـ (ما تطوّلي الغيبة، بدّي أموت وأنتِ جنبي).

حاولتُ أن أخفّف عنها فبادلتها المزاح:

ـ (بخاف تاخديني معك)!

كان وجهها يُمزّق قلبي وضحكتها تعيد إليه بعض الذي تمزّق.

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

في المقبرة

قلبي يبحث عن يدٍ تقتلع الثقل والوجع منه. آه لو كان حبيبي الآن معي لصبَبْتُ جام حزني عليه. حاجتي لصدر حنون أُفرغُ عليه وجعي وهمّي ذكّرني بأمّي. هناك عند قبرها قد تكون الرّاحة والأمان.

ذهبتُ إلى المقبرة، صمتٌ رماديّ ينتشر ويلفّها. مشيتُ بين القبور قاصدة قبرها، عيني تستاء من رؤية الأوراق والأكياس وبقايا أكل متناثر، بعض خنافس وجثّة قطّةٍ تراكم عليها النمل والذباب. أنظر إلى القبور المتجاورة، كلهم تحت التراب سواسية، من رفع عصاه سقطت، ومن أطلق لسانه بقذفٍ ونميمةٍ صَمتْ، هو الموت الذي يُسقِطُ الجبابرة والضعفاء ولا يُفرّق بين عبدٍ وسيّد. كلهم تحت التراب ليقتات من لحمهم الدّود.

اندفعت إلى قبر أمّي. وجدت العشب الأخضر ناميًا فوق ترابه. تذكّرت مقولة قرأتها ذات يوم (إنّ وجود العشب على

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

القبور دليلُ رضا الله على الميت). ألقيتُ جسدي عليه. رسمتُ بدموعي صورتها على تراب قبرها فارتدّ شعاعًا يجفّف دموعي. إنّ قلبي وهتافي (اغسليني بغفرانك يا أمّي. سامحيني.. أنا الآن أمٌّ وأعرف أنّ قلوب الأمّهات مصنوعة من شتلةِ نور).

أغمضتُ عينيّ وألصقتُ أذني بالتراب متمنّية أن أسمع همسة.. آهة.. أو حتى صرخة تُشبه صرختها القديمة. يقولون إنّ الأموات يُحسّون ويسمعون. (آه يا أمّي ليتك تسمعينني الآن لتفرحي، لقد حقّقْتُ رغبتك وتزوّجت، دخلت الفراديس ولم أترك عفاف). رفعتُ رأسي إلى السماء، كانت غيمة وحيدة ثابتة فوق القبر، توسّلتها بقلبٍ دامع (هزّي عليها بغيثك يسّاقط على قبرها دفئًا ورحمة). قبّلتُ ترابها. قرأت الفاتحة وطلبتُ لها الرحمة والسلام.

مشيتُ إلى قبر أبي. ارتميتُ عليه ففاحت رائحة حنانه. حدّثته عن ماري (ستلحق بك يا أبي. كل أحبابي يفارقونني والحزن يتواصل). بكيتُ. قبّلتُ تُرابه. قرأت الفاتحة وطلبتُ له الرحمة والسلام. تعثّرتُ بحجر وأنا أمشي إلى قبر مسعودة. فتحت ذراعيّ واحتضنتُ قبرها الجافّ أبلّله بدموعي (أيّتها الأم التي ربّتْ وحنّتْ وصدقتْ بأمومتها). قبّلتُ تربتها. قرأتُ الفاتحة وطلبتُ لها الرحمة والسلام.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

قبل أن أغادر جالت عيناي على القبور. هنا الأموات يرتاحون ويغفون بانتظار سِراطهم الموعدين به. (يوم يقوم الناس كالفَراش المبثوث). شعرتُ بالخشوع فأطلقت دعائي (اللهمّ أفسح لهم في قبورهم ضيق المضاجع واغفر لهم ما اقترفوا من ذنوب).

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

حلمُ ماري

ظللتُ أواصل أسفاري لماري، مرّة بعد مرّة كنت أراها تكشّ وتتآكل، فرمَ المرض لحمها وقرضَ عظمها. لا تنام إلاّ بالمهدّئات وفي صحوها يشتدّ أنينها. ترحل في غيبوبات قصيرة، تستفيق لتغيب. يوسف أيضًا هزل جسده وغاب ابتهاج وجهه، تفرّغ لخدمة ماري. أراه كيف ينظّف جسدها بفوطة مُبلّلة بماء الكولونيا ويرشّها بالبودرة، يقلّم أظافرها. ويُساعدها على قضاء حاجتها وهي في السرير. تبكي ماري وتهمس لي:

ـ (بتمنّى أموت حتى أريّحه وأرتاح).

وبعظيم حبّي لها كنت أتمنّى أن يخفّف الله عنها أوجاعها.

رغم تعبها لا تنسى ماري صلواتها. تشبكُ كفّيها تحت ذقنها وتصلّي. تمسك بالإنجيل وتقرأ. وحين تتعب ترجوني أن أكمل القراءة. لحظاتٍ وتغمض عينيها وتغرق في غيبوبتها.

لم تمض غير أسابيع منذ تركتها آخر مرّة حتى جاءني صوت عفاف باكيًا:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ ماما . . خالتو ماري بالمستشفى. حالتها سيّئة جدًّا. عمّو يوسف طلب أن أتّصل بك. والياس وصل من أميركا.

لم أتلكّأ. ركبتُ أوّل طائرة وكنتُ عند سريرها. عيناها نصف المفتوحتين تحطّان على وجهي، ابتسمتْ. حرّكت إصبعها تدعوني أن أقترب. حضنتُ أناملها الباردة. قرّبتُ أذني فهمستْ:

ـ (عَمْ بَحِسّ الموت ماشي فيني).

صوتها الخائف تناثر واستقرّت شظايا نثاره في قلبي:

ـ صلّي يا ماري.

تحرّكت شفتاها ببطء وصلاتي في قلبي شلاّل دموع يتوسّلها صامتًا (لا تموتي يا ماري).

امتلّت كفّي. اقتربتُ مُلتصقة بها فهمستْ:

ـ (اسمعي. . امبارح حلمت حلم عجيب).

صوتي اختنق:

ـ لا تُجهدي نفسك يا ماري.

أصدرتْ ضحكة متقطّعة ملوّثة بيأس كبير وتابعت:

ـ (جاي عبالي يا أحكي، يا أبكي).

بكى قلبي:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ إحكي يا ماري سأسمعك.

ـ (امبارح حسّيت متل السكاكين عَمْ تُفرم لحمي فَرم، وعروقي عَمْ تعصر عَصِرْ، وريقي كان ناشف ـ يا عدرا ـ شو شربت ميّ وضلّيت حِسّ بالعطش كأنّي ما شربت. صرت أصرخ يا يسوع خدني وخلّصني، إجَتْ الممرّضة أعطتني حبّة مهدّئ رخْيَتْ أعصابي ونمت. شويّ وشفت حالي بِفَيلاّ واسع كله عشب أخضر مزهّر متل فستان مخمل، والشمس كانت عَمْ تُغرُب ووشّها حزين متل قلبي لكنّها فجأة ضُوّيت عالدّني كأنّها عَمْ تُشرق وشفته. صدّقيني شفته).

ـ مين؟!

ـ (يسوع).

ـ عليه السلام.

ـ (شفته طالع من قلب الشمس متل العرس. عَمْ يهمس هَمِسْ، ماري... يا ماري. سمعت اسمي طالع من تُمّه متل ريشه بتلمسني لَمِسْ، ماري عَمْ تسمعيني؟ ما قدرت ردْ بس رفّيت له بعيني، ابتسم وقال حضّري حالك بكره جاي لعندك آخدك. وغاب. متل جناح السحاب. ورجْعَتْ الشمس حمرا متل جمرة. وهويت عالأرض متل حجره. طبّيت وشّي عالعشب. صرت إبكي وميّة عيوني مطر يُنْكُبْ سَكِبْ. ويحفر جُوَرْ بقلب العشب شمّيت ريحة الأرض المرْويّة متل ريحة أمّ منسيّة. وضحيت لقيت وشّي المغسول بدموعه غاطس بقلب

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

المخدّة وتفوح ريحة القطن متل العجين الْمِسْتنّي الفرن. مسحت دموعي وقلت خلص أنا انتهيت يسوع ما بيكْدِبْ صرت أصلّي).

هل كنت أسمع شعرًا، صلاة، أم نزعات الموت تُرنّمُ قُدّاسها المجيد؟ همست لها:

ـ ليس دائمًا تصدق الأحلام يا ماري.

انتفضتْ.. رسمت إشارة الصليب على صدرها الواهن:

ـ (إلاّ هادا الحلم. هادا يسوع إجه بنفسه يبلّغني موعد موتي).

تنهّدتْ فشقّت النهدات صدري. سهمتْ بعينيها، عضّتْ على شفتها السفلى وخرج صوتها كالأنين:

ـ (أنا رح موت. هيك حاسّة، شو حاسّة!! أنا متأكّدة والموت رح يريّحني. صدّقيني المرض أكبر عذاب، ويسوع جاي يخلّصني. تصوّري دايمًا كنت بسّ فكّر فيه بشوف شي متل الضوّ ولمّا قلت مرّة قدّام إمّي قالت لي القدّيسات بس باللي بيشوفوا هالضوّ. ولو!! شو فكّرتني قدّيسة؟ أنا حياالله حبّة عدس بهالكون الكبير. كنت طول مرضي عَمْ بكتب له إشيا كتير).

مدّت ذراعها بصعوبة نحو الكمودينو. ساعدْتها، استلّت أوراقًا مبعثرة وسلّمتها لي:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ (خديهم. اقريهم وخلّيهم معك. معلش خطّي زيّ ما إنتي عارفة وكمان همّ مجعلكين شوي).

تلك الليلة لم أغادرها رغم وجود يوسف. ظللتُ قرب سريرها أتأمّل وجهها الشاحب ورأسها الذي لم تبق به سوى شعيرات قليلات، أسمع أنينها المتواصل مثل ناي سجين وأنفاسها المتلاحقة كقطار لاهث. أبكي وأطلب من الله أن يُريحها ويرحمها. وحين تنتفض أفزع إليها أتلمّس أطرافها فأحسّها كالثلج، أزيد عليها الغطاءات لكنّها تظلّ ترتعش ويبهت وجهها أكثر. عيناها مسبلتان وادعتان. تُرى!؟ هل كان يُعاودها حلم البارحة؟ (نامي يا ماري ربّما هي نومتك الأخيرة، ستصعد روحك إلى السماء حيث وعدك (يسوع) ويرحمك الله من عذابك المُرّ. كلّنا بانتظار جفاف الزيت وانطفاء السراج).

قبل إشراقة الفجر تنفّس الباب بهدوء وأطلّ وجه الياس وكارين. لاحظا بقايا أرقي قال يوسف:

ـ أتعبناها.. لكنّها رغبة أمّكما أن تظلّ معها.

ماري غائبة. يوسف يرجوني:

ـ روحي البيت ارتاحي إحنا معاها.

كنت فعلاً بحاجة للرّاحة، قبّلتُ جبينها وقلبي يدعو لها

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

(اللهمّ إنّها في ذمّتك وحبْل جوارك فقِها من فتنة القبر وعذاب النار وأنت أهل الوفاء والحقّ. فاغفر لها وارحمها إنّك أنت الغفور الرحيم).

حملتُ أوراقها (المجعلكة) ونفسي المُثقلة بحزنها... وخرجت.

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

زفاف ماري

فور وصولي دخلتُ إلى الحمّام، رائحة ماري عالقة بي. لسكراتِ الموت رائحة طين قديم تسكن الجسد. أخذتُ دوشًا سريعًا، غليتُ قهوتي وجلستُ أرتشفها قرب النافذة التي تحيك ماري الصوف عندها. فتحتُ أوراقها المجعلكة وبدأتُ أقرأ الصفحات بصعوبة، يبدو أنّها كانت تكتب وكفّها المتعرّقة تبلّل الحروف المضطربة: (تعزف أجراسٌ بقلبي، أتنفّس شذا الزيت المبارك، أغمس خبزي كفاف يومي وأصلّي، أحلم بالخلاص). (يا يسوع.. أبانا الذي في السموات يا من حملتَ تاج شوكك وصليبك وقطعت دروب الآلام. منك تعلّمت أن أحبّ آلامي وأسير حاملة حنطة المحبّة). في صفحة أخرى عادت ماري إلى لهجتها (يا ترى رح ينساني يوسف ويتجوّز). (يا الله شو بحبّ لبنى تعبت معي كتير، نِسْيتْ قلبها وحبيبها وضلّت حدّي). (حسرة عليّ، مش رح أقدر أشوف ولادي مجوّزين وأفرح بولادهم). (كان نفسي أشوف إمّي بس ولاد هالكلب اليهود... يا ترى بترجع فلسطين وبن...).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

قبل أن أكمل زعق جرس الهاتف ودوّى صوت يوسف مفزوعًا:

ـ تعالي حالاً ماري تطلبك.

حين دخلتُ كانت مثل طفلة رضيعة معوّقة بين ذراعيْ يوسف وهو يُنقّط الماء في ثغرها نصف المفتوح، كارين والياس يحيطان بالسرير يبكيان. جلستُ بقربها. كانت نصف غائبة. حين أمسكتُ بكفّها حظيتْ بصحوة كاملة. نظرت إلى يوسف وهمهمت بكلماتها المتقطّعة:

ـ (بدّي أترجّاك يا يوسف).

بلهفة العاشق:

ـ اطلبي يا حبيبتي.

ـ (إذا مُتّ ما تتزوّج وحدة غيري. اوعدني حتى تشهد لبنى على وعدك).

ألصقها بصدره، نثر قبلات سريعة على كل الوجه المترقّب للوعد، أهداه لها وعيناه تقطران وقال بصوتٍ مليء باليأس:

ـ أظنّها في النّزع الأخير.

صرخنا جميعًا فهرعتْ المُمرّضات، طلبنَ الهدوء والصلاة على روحها. تماسكنا وبدأنا نتلو: (أهّلها لرحمتك وغفرانك ومحو خطاياها، إجعلها تشعّ نورًا مع قدّيسيك من عن يمينك

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لأنّك أنت هو الرّب خالق جميع الكائنات وديّان الأحياء والأموات).

دخل الكاهن بلباسه الأسود المهيب. وجهٌ سمحٌ تفوح منه روائح جلال وإيمان. بدأ عمله ماسحًا بالزيت شكل صليب على وجه ماري من جبهتها إلى شفتيها وذقنها، ومن أذنها اليُمنى مرورًا على عينيها إلى أذنها اليسرى وهو يتلو الصلاة (. . . إشفِ بهذه المسحة المقدّسة عبدك هذا من كل مرض في النّفس والجسد بنعمة مسيحك الذي. . .).

أصدرتْ ماري آهة طويلة ثم انتابتها شهقات مُتتابعة تُغالبها فتجحظ عيناها. يغيب البؤبؤ ويتّسعُ اللون الأبيض. وفي لحظة سريعة غابت الرّوح.

لم تحتمل كارين والياس المشهد، خرجا من الغرفة نائحين وظلّ يوسف يحضن كفّ ماري ويواصل صلاة هامسة بينما أبتلعُ نُواحي احترامًا للمشهد، وأنا أستعيدُ وجه ماري الذي منذ أن عرفتها لم تغِب عنه البسمة والنور. وفي سرّي تتضاعف كراهيّتي للموت.

أسدل يوسف الملاءة على وجهها، هي غيبته النهائيّة. تذكّرتُ وجه أمّي في غيابه وتضاعف الحزن بداخلي.

خرجنا من الغرفة، احتضن يوسف كتف الياس وقال:

ـ أنْهِ إجراءات المستشفى ونقل التابوت. أنا ولبنى سنسبقكم لتجهيز المكان.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

كان النهار باردًا والغيوم كثيفة داكنة تنذر بوابل المطر. فور وصولنا أسرع يوسف إلى الهاتف. سمعته يبلّغ أمّها الخبر وهو يجهش.

ثمّة جاراتٌ قريباتٌ لقلب ماري توافدْنَ يبكين ويعزّين.

ـ علينا الآن أن نجهّز المكان.

قالها يوسف وهو يبدأ بجرّ أول أريكة من الصالون، تساعدنا وأفرغناه. جئنا بسريرها وضعناه في المنتصف. أحضر يوسف الشمعدانات الكبيرة، رصّها عند زاويا السرير الأربع وعند وسط الرأس علّق الصليب الضخم. أعددنا الشموع الصغيرة والبخور. كنّا نُعدُّ الفراش وكأنّنا نُعدّه لعروس. دمعي لا يتوقّف، صوت يوسف من غرفة نومهما يطلبني، دخلت ففاحت رائحة ماري. كان يقف عند باب الخزانة المفتوح، أشار:

ـ هذا فستان عرسها، أكيد سيكون واسعًا عليها.

أخذ يتشمّمه ويجهش. أخرجتُ الفستان، نفضته، شعرتُ بعبق سنوات الحبّ يتطاير ويندفع نحو يوسف يلتصق به. يأسره لينفّذَ وعده. قضيتُ أكثر من نصف ساعة وأنا أكوي كشاكشةَ الدانتيلاّ المكرمشة وأحاذر أن أمسّ فصوصه الفضّيّة.

وصل التابوت.. حملها يوسف وأسجاها على السرير. أحضرتُ غطاء الصوف وهمستي:

ـ الدنيا برد.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

نظر إليّ يوسف بحنان:

ـ الميّت ما بيحسّ.

هكذا قالت المرأة وهي تغسل جسد أمّي بالماء البارد. استلقت كارين بجانب أمّها. ذراعها تحضن الصدر والوجه مدفون فيه ونحيبها لا ينقطع. المشهد يرتفع بي إلى التخيّل (هل ستفعل عفاف ما تفعله كارين الآن؟) صرتُ أتلوّع وأتذكّر مشهدي وأمّي التي ماتت دون أن تراني، والمرأة تغسل جسدها ويتلألأ نظيفًا لكنّها لا تستطيع أن تكشط عنه حسرتها وعذاب سنوات الفراق. أُبحر في وجه ماري المُغمض. وقد خطف الموت لونه الورديّ. أرشّه بالدعاء. أتأمّل وجه يوسف المُحتقن بوجعه وأرى وصيّة ماري، وأدرك أنّه سيُحقّقها ويعيش لكارين والياس كما عاش أبي لأجلي.

بدأ يخلع عن ماري ثوب المستشفى. انكشف جسدها فانتصب أمامي جسد أمّي الرخاميّ (آه يا ماري وأمّي.. كتب الله عليّ أن أرى جسديكما العاريين). فاض نشيجي. يوسف يدعوني أن أهدأ وأساعده بإلباسها الثوب. ماري احتفظتْ بفستان زفافها لترتديه يوم موتها، ثوب زفافي لم أهتمّ أن أحتفظ به. أمّي قالت (خلّيه لعفاف). قلتُ (زمن عفاف غير زمننا). ولا أدري لماذا في تلك اللحظة فاجأني هاجسٌ غريب بأنّ عفاف لن تلبس ثوب زفاف! تأمّل يوسف وجه ماري، غادر إلى غرفتهما وعاد يحمل علبة صغيرة قدّمها لي:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ـ أنتنّ نساء تعرفن كيف توضع المساحيق.

انتفضت:

ـ يوسف... ماري الآن ميّتة كي...

قاطعني:

ـ نحن المسيحيّين نزيّن موتانا، نزفّهم كما نزفّ عرائسنا، أرجوكِ... جمّليها.

بيدٍ مرتعشة نثرتُ الأحمر على خدّيها الذابلين ولوّنتُ شفتيها. قليلٌ من الكحل فوق عينيها المُطبقتين كبرعمين أصفرين. بدت ماري في موتها كالعروس، لا قطن، لا كافور، ولا كفن يحشرها.

* * *

ارتدى الليل ملاءته السوداء، الرّعد يُدوّي، المطر شلاّلات مجنونة، دخل الكاهن. وزّع علينا الأوراق، ساد المكان سكونٌ جليل وكأنّنا جميعًا قد ابتلعنا أنفاسنا، وحده الكاهن يُرتّل بصوت رخيم ونحن نقرأ في سرّنا. دار حول السرير بمبخرته فتعبّقنا بالبخور. قدّم تعازيه وخرج.

أُطفِئَتْ الأنوار.. وحدها أضواء الشموع المُرتعشة يتراقص لهبها كأطفال متعبين. وجه ماري مُستسلم لأصابع الضّوء المُنعكسة كأنّها أصابع أمٍّ تُهدْهِدُ صغيرتها لتنام. كارين عند

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

قدميْ أمّها تُسقط رأسها وتنوح، نواح الجارات خفيف وقراءتهنّ الخافتة لا تنقطع. يوسف لم يخرج من غرفته إلاّ حين خرجن. جلس على طرف السرير يحضن رأسها، يمسح عليه ويقبّله. كان المشهد قدسيًا أمامي وأنا لصيقة النافذة الباردة ألعن خيوط الصوف.

لم ننم.. غفواتٌ قصيرة تأخذنا وتعود بنا وكأنّنا نخرج من حلم ثقيل. هل تُحسّ ماري الآن بأحبابها المُحيطين بها؟ إن كان الميت كما يقولون يُحسّ بمن حوله فكيف إذن لا يُحسّ بالماء البارد ورائحة الكافور وقماطات الكفن؟

* * *

أطلّ الصباح حزينًا. عمّان تُثلج. ندف الثلج غلّفت الأشجار فبدت كالعرائس ترتدي أكاليلها. أُصصُ النباتات المصفوفة على حافّات النوافذ كأطفال بانتظار فطورهنّ. كان يوسف قد أشعل أكثر من مدفأة. البيت دافئ. جسد ماري وحده بارد لا يستقبل الدفء.

ماري ستغادر الآن إلى الكنيسة حيث سيُقام لها الجُنّاز ويُصلّون عليها. أجراس الكنيسة تُقرع منذ الصباح بلحن الموت، والثلج يتراقص على رنينها مُنسكبًا على صدر الأرض.

جاؤوا بالتابوت.. أصرّ يوسف أن يحمل جسدها ويُسجّيه داخله، مسح على جبينها وأهداه قبلته. نزع عن رأسها الطاقيّة،

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

استلّ مشطه القديم الذي تكرهه ماري وبهدوء أخذ يُمشّط الشعيرات القليلات ثم ألبسها طاقيّتها. أغْلقَ التابوت فغاب وجه ماري. ظلّ يوسف مُحتضنًا مشطه ثم بدأ يسْتلّ الشعيرات العالقة به، كوّرها ودسّها في جيبه. مشى بخطوات ثقيلة نحو سلّة المهملات القريبة، لثم المشط ثم ألقى به في السلّة و... أجهش.

* * *

تُثلج... تُثلج... الندف تنفصل عن غيومها وتهطل كحبّات لؤلؤ رخوٍ تُغلّف السيّارات والطرق. تتشكّل وجوهًا حزينة وتماثيل مائلة. طابور السيّارات يُشيّع ماري الحبيبة إلى عُرسها الأخير.

وصلنا الكنيسة.. أدخلوا التابوت الذي تزخرف بندف الثلج. نحن في إثره ننفُضُ ثلجنا. المكان دفء، هدوء رخيم، في الواجهة صورة السيّد المسيح عليه السلام. وعلى بقيّة الجدران تتوزّع صُورٌ لقدّيسين وأيقونات قديمة. الشموع مضاءة والبخور يضوع، وثمّة باقات ورودٍ سبقت مجيئنا. وُضِعَ التابوت في الممرّ الأوسط. الرأس صوب المذبح والقدمان باتّجاه باب الدخول. المعزّون يتوافدون. الرجال في بذلاتهم السوداء وربطات العنق، والنساء في فساتينهن السوداء مُصفّفاتِ شعرهنّ ناثراتِ مساحيق خفيفة على وجوههنّ، روائح العطور تفوح منهنّ، مظهر جميل والحزن في القلب أجمل.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

اصطفّ الرّهبان. . جاء الكاهن، بدأ يرشّ الماء المبارك والمباخر تدور. الصلوات والتراتيل المهيبة تقتحمني وتذرّ في داخلي سلامًا فأُحِسّني بين الملائكة في سماء زرقاء وجنّة خضراء. هدوءُ المعزّين وصمتُهم يشملانني بالجلال.

بدأتْ الصلاة (أبانا الذي في السموات ليتقدّس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك في الأرض، أعطنا خبزنا كفاف يومنا واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا كما نحن نغفر لمن أخطأ إلينا، ولا تُدخلنا في التجارب لكن نجّنا من الشرّير. . آمين).

شعرتُ بذراع تدسّ نفسها في ذراعي، كانت عفاف بوجهها الباكي. وثلجها متراكمٌ على بالطوها وطاقيّتها.

حملوا النعش بعد الصلوات إلى السيّارة التي ستزُفُّ ماري إلى مثواها الأخير. تابوتها يتكلّلُ ببياض الثلج. والأجراس بلحنها الحزين تدقّ وتدقّ.

* * *

دخلنا إلى المقبرة. لا شيء يقتحم صمتها إلاّ رنين الأجراس المُعبّأ بحزن الوداع. شعرتُ وكأنّني أدلف إلى حديقة أو بهوٍ كبيرٍ مُعَدٍّ لاستقبال العرائس والعرسان، رؤوس الأشجار ترتدي أكاليلها من ندف الثلج، شواهد القبور شامخة بأسماء موتاها وتواريخ رحيلها الأخير، رغواتٌ من الثلج استقرّت فوق سطوح الأضرحة المفروشة بورودٍ طازجة وبائتة. المساحات

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بين الأضرحة نظيفة تبهرني وتجعلني أغبطهم على هذه المقابر الأشبه بالحدائق.

وقفنا أمام التابوت. نظرت إلى باطن الحفرة المتأهّبة لراحة ماري. هل كان قبر أمّي زاهيًا كقبر ماري؟ دموعي تهطل ساخنة وتبتردُ فوق وجنتيّ الباردتين وقلبي يذكر الله ويقرأ سورة (يس).

وقف الكاهن عند المدفن. رشّ التابوت بالتراب مُصلّبًا وصوته (لقد تمّت إرادتك يا ربّ. ويا إنسان من التراب أنت وإلى التراب تعود. ومنذ البدء تتجدّد).

حملوا التابوت.. سجّوه فوق السّقالة المعدنيّة المُثبّتة بها السلاسل العريضة بلونها الذهبيّ وبدأوا يهبطون به. استقرَّ في باطن الحفرة. أمر الكاهن أن يوضع الحجر ويُغلق القبر. غابت ماري إلى الأبد. رحلت إلى أفق الموت المظلم. (كم أكرهك أيّها الموت!! رهنتني لأشهد دفن ماري وحرمتني أن أشهد دفن أمّي).

بدأوا بترتيل الأناشيد الحواريّة:

الجماعة: وضعنا عليك الحجر وأغلقنا القبر.

صوت: أنا خائف أطلب المغفرة.

الجماعة: لا تخف صليب المسيح يكون جسرًا ومعموديّته سترًا فلن تقع في الهاوية.

بعدها قرأوا:

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

(غيث الرحمة نداه حبّ الباري فوق أطفال النعمة وسط أتون النار. ربِّ نَدٌ في الظلمة وجه موتانا العاري واغفر للخاطئ إثمه يحيَ طول الأدهار. واكتب اسمه بين جوقة الأبرار).

في داخلي (اللهمّ أفسح في قبورهم ضيق المضاجع والضرائح واغفر لهم ما اقترفوا من ذنوب. اللهمّ كُنْ لهم بعد الحبيب حبيبًا).

في الليل لم أنم. ظللت أستعيد زفاف ماري وأتذكّر موت أمّي ويناوشني السؤال: أيُّ الموتين أجمل؟ هل يحقّ لي أن أتمنّى موتًا كهذا وأوصي بمثل هذا الزفاف؟!

في الليل لم أنم... كانت المشاهد تُغرقني بوابل من الرّجفات.

* * *

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

في بيت أمّي

عصفة حنين حملتني إلى بيت أمّي الذي ورثته ولم أدخله منذ أن ماتت. ما الذي يعيثُ به الآن بعد الهجر؟ كلّما اقتربت بسيّارتي صفَّرتْ في رأسي رياح الماضي، طردتُ كل الصّور والأحداث الأليمة واستحضرتُ وجه أمّي خاليًا من فوران الغضب وتلك الصرخة، وأبقيتُ على صورتها المُترغرغة بحنانها الأحَنّ من الشّفق.

وصلت... كان الحزن قد ارتداني بسواده. وروحي تغُطُّ في أوجاعها:

(يا بابها الحزين.. كُنْ لي باب رحمة. يا شجرة رُمّانها المُطلّة من عنق السور.. امنحيني ظلاً وكوني لي سدرة المُنتهى).

فائضة برغبتي ورهبتي وقفتُ أمام الباب. كفّي تتلمّسُ حنين الباب القديم، داعبتُ حديده الذي صدئ، زُجاجه الذي تهشّم بعضه، دسَسْتُ المفتاح، فإنَّ في الثقب أنينَ

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الهجران، عاندني ثم طاوع لهفتي إلى الدخول. آه يا بيتها الغارق في الذهول والوحشة والأتربة!

هو حوشها.. كل شيء فيه يبكي، الأبواب، الجدران، شجرة الرمّان الجافّة، قفص الدجاجات بريشٍ قديم وكسار بيض، و... ضميري.

يتهادى إليّ صدى صوتها الجميل الأعذب من الناي، شرقة ضحكاتها كرنين الذهب، قرقعة ماكينتها الأهدأ من شهوة العاشق. أسمع الصّدى بقلبي المتلوف ولَهًا وندمًا، اقتربتُ من شجرة الرمّان أبحث عن مرفأي الضائع، كانت حبّاته الناشفة مذرورة حولها على الأرض، وبين غصونها تشابكت أعشاش العصافير، دنوتُ.. أكثر.. أكثر.. أعرف أنّ للأشجار ذاكرة تختزن حزن الأمّهات وعنبر أنفاسِهنّ، التصقتُ بجذعها. قطفتُ من أوراقها الميّتة، تشمّمتُ عنبر أمّي وشربتُ من أجاج حزنها. عيناي ترقّان ويتساقط لؤلؤهما أسود بلون حزني وأنا أحدّق بباب الغرفة التي خرجتْ منها أمّي إلى سكون الموت وأسراره.

دنوتُ من الباب.. فتحته، لم يُقاومني. دخلتُ.. كلّ شيء باق على حاله، الموت لا يُغيّبُ الجمادات. تبقى ألوانها وروائحها. أمّي فقط هي الغائبة. هنا رأيتها آخر مرّة مُسجّاة والغاسلة تنتهكُ جسدها بالقطن والكافور. هل طردتْ

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

رائحته دودَ قبرها؟ ارتميتُ على البقعة التي تركتها محمّلة بثقل سنواتها وعويتُ بكلّ صوتي عواء جروٍ يتيم.

ناوأتني نفسي أن أدخل غرفة نومها. ارتجفت وأنا أقتربُ من بابها. تردّدت لكن صدى صوتها العازف بسمعي شدّني وكأنّها والهة تناديني. دفعتُ الباب وبخطوتي المضطربة تخطّيتُ العتبة. عتمة الفراغ حتى من ظلّها تنتشر وتخترق روحي ورائحة الصمت والهجر ممزوجة برذاذات بائتة من روائح أمّي. رائحة عطرها، حزنها، رقادها، صحوها، وحسراتها المتراكمة. تأمّلتُ الغرفة، أحسستُ بمحتوياتها تهتزّ وتنثر أتربتها رمادًا ناعمًا وثلجًا أسود. كنتُ وكأنّني أخوض في حلم مرتبك الألوان أفلتُ منه لأسرج نظرتي إلى سريرها المرتّب. (آه يا أمّي.. هنا كنتِ تنامين بجانب الغريب محرومة من أبي ومنّي).

ارتميتُ على فراشها النابض برائحتها، تنشّقتها وبلّلتُ الشراشف. لو كان لي أن أحصي دموعي لأمْضيتُ عُمرًا كاملاً. هذه مخدّتها التي احتضنتْ أحلامها وضجيج أفكارها. ألصقتها بصدري، بنبضي، وتخيّلتُ أنّني لو أفرغتها من قطنها لوجدْته رطبًا تتراكم فيه دموعها، أسرارها، مشقّات عمرها وحنينها الجارف لرؤية وجهي قبل موتها.

(آه يا أمّي.. سامحيني واغفري بلاهة عنادي. كنتُ ابنتكِ الوحيدة وأنا الآن الأمّ الوحيدة وال...).

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

(غريبة من بعد عينك يا يُمّة

محتارة بزماني

يا هو الـ . . يرحم بحالي يا يُمّة

لو دهري نساني)[1].

* * *

(١) أغنية عراقية للمطربة زهور حسين.

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

www.ibtesama.com

هو ذلك اليوم الذي تصوَّرتِ أنَّ أمّكِ نفضتكِ عن صدرها كما تنفض حشرة عالقة بجسدها. كان صرير ثورتهما وحوارهما العاصف يُدوّي كالرّيح ويُساقطك في الزاوية كزهرة مُفتّتة. حتى دموعك استعصت، مُفسحةً المجال لعينيكِ كي تتربّصا بهما بانتظار أن يهدأا ويرحما طفولتكِ الموشكةَ على التفتّت. أبوكِ أطلق سهم قراره: «سآخذها معي». أمّكِ صرختْ بملء غضبها: «خذْها لا أريدها».

مكتبة الابتسامة

ليلى العثمان روائيّة كويتيّة، صدر لها عن دار الآداب أربعُ مجموعات قصصيّة وثلاثُ روايات: صمت الفراشات، والمحاكمة وخذها لا أريدها.

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

ISBN: 978-9953-89-092-0
9 789953 890920
دار الآداب